

سورة التوبة

معاني الكلمات :

براءة من الله : تبرؤ وتباعد وأصل من الله .

فسيحوا : سيروا آمنين .

غير معجزى الله : غير فائتين من عذابه بالهرب .

أذان : إعلام .

لم يظاهروا : لم يعاونوا .

انسلخ : انقضت الأشهر .

احصروهم : احبسوهم .

كل مرصد : كل طريق وممر .

استجارك : استأمنك .

مأمنه : دار قومه .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - أن نعرف سبب نزول هذه الآيات من السورة .

٢ - أن نقف على طبيعة التشريعات النهائية للعلاقات الدولية كما جاءت بها الآيات .

٣ - أن نعلم أحكام القتال الواردة في الآيات .

المحتوى التربوي :

هذه السورة مدنية من أواخر ما نزل من القرآن ، إن لم تكن هي آخر ما نزل من القرآن ، ومن ثم ، فقد تضمنت أحكاماً نهائية في العلاقات بين الأمة المسلمة وسائر الأمم في الأرض ، كما تضمنت تصنيف المجتمع المسلم ذاته ، وتحديد قيمه ومقاماته ، ووصف واقع هذا المجتمع بجملته ، وواقع كل طائفة منه وصفاً دقيقاً مبيناً .

وهذا المقطع من سياق السورة نزل متأخراً عن بقيتها ؛ وإن كان قد جاء ترتيبه في مقدماتها ، وهو أمر توقيفي منه ﷺ ؛ وهو يتضمن إنهاء العهود التي كانت قائمة بين المسلمين والمشركين حتى ذلك الحين ، سواء كان هذا الإنهاء بعد أربعة أشهر لمن كانت عهودهم مطلقة ، أو الناكثين

لعهودهم ؛ أو كان بعد انتهاء الأجل لمن كانت لهم عهود مقيدة ، ولم ينقصوا المسلمين شيئاً ، ولم يظاهروا عليهم أحداً ، فعلى الجملة كانت النتيجة الأخيرة هى إنهاء العهود مع المشركين فى الجزيرة العربية ؛ وإنهاء مبدأ التعاقد أصلاً مع المشركين بعد ذلك ، بالبراءة المطلقة من المشركين ، وباستنكار أن يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله .

وقد ذكر الإمام البغوى فى تفسيره أن المفسرين قالوا : إنه لما خرج رسول الله ﷺ إلى تبوك أرجف المنافقون ، وأخذ المشركون ينقصون عهودهم ، فأنزل الله الآيات بالنسبة لهؤلاء مع إمهالهم أربعة أشهر ، إن كانت مدة عهدهم أقل ، أو قصرها على أربعة أشهر إن كانت أكثر .

وذكر الإمام الطبرى - بعد استعراضه الأقوال فى تفسير مطلع السورة : وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب قول من قال : لأجل الذى جعله الله لأهل العهد من المشركين ، وأذن لهم بالسياحة فيه بقوله : ﴿ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ إنما هو لأهل العهد الذين ظاهروا على رسول الله ﷺ ونقصوا عهودهم قبل انقضاء مدته .

فأما الذين لم ينقصوا عهودهم ولم يظاهروا عليه ، فإن الله جل ثناؤه أمر نبيه ﷺ بإتمام العهد بينه وبينهم إلى مدته بقوله : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ .

يقول صاحب الظلال : اقتضت أن تفتتح السورة بهذا الإعلان العام ببراءة الله ورسوله من المشركين ، وأن يتكرر إعلان البراءة من الله ورسوله بعد آية واحدة بنفس القوة ونفس النعمة العالية ؛ حتى لا يبقى لقلب مؤمن أن يبقى على صلة مع قوم يبرأ الله منهم ويرأ رسول الله ﷺ ، واقتضت تطمين المؤمنين وتخويف المشركين بأن الله مخزى الكافرين ، وأن الذين يتولون لا يعجزون الله ولا يفلتون من عذابه ؛ واقتضت استنكار أن يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله - إلا الذين عاهدتم ثم استقاموا فيستقام لهم مدة عهودهم ما استقاموا عليه - مع تذكير المؤمنين بأن المشركين لا يرقبون فيهم عهداً ، ولا يتذممون من فعله لو أنهم قدروا عليهم ، وتصوير كفرهم ، وكذبهم فيما يظهرونه لهم أحياناً من مودة بسبب قوتهم .

ومع إعلان البراءة المطلقة وهذه القرارات الحاسمة يبعث الترغيب فى الهداية والترهيب من الضلالة وهذا يشير إلى طبيعة المنهج الإسلامى ، إنه منهج هداية قبل كل شىء فهو يتيح للمشركين هذه المهلة لا لمجرد أنه لا يجب أن يباغتهم ويفتك بهم متى قدر - كما كان الشأن فى العلاقات الدولية ولا يزال ! ، ولكنه كان يمهلهم هذه المهلة للتروى والتدبر ، واختيار الطريق الأقوم ؛ ويرغبهم فى التوبة عن الشرك والرجوع إلى الله ، ويرهبهم من التولى ، وييسرهم من

جدواه ، وينذرهم بالعذاب الأليم في الآخرة فوق الخزي في الدنيا ، ويوقع في قلوبهم الزلزلة التي ترجها رجاً لعل الركام الذي ران على الفطرة أن ينفض عنها ، فتسمع وتستجيب !

ثم هو طمأنة للصف المسلم ، ولكل ما في قلوب بعضه من مخاوف ومن تردد وتهيب ومن تخرج وتوقع ، فالأمر قد صار فيه من الله قضاء ، والمصير قد تقرر من قبل الابتداء ! ولقد حدث ما ذكره ابن القيم من أن هؤلاء الذين استثناهم الله وأمر بالوفاء لهم بعهودهم قد دخلوا في الإسلام قبل أن تنقضي مدتهم ، بل حدث أن الآخرين الذين ينقضون عهودهم وغيرهم ممن أمهلوا أربعة أشهر يسبحون فيها في الأرض ، لم يسبحوا في الأرض وإنما اختاروا الإسلام أيضاً !

لقد علم الله - سبحانه - وهو ينقل بيده خطأ هذه الدعوة ، أن الأوان قد آن لهذه الضربة الأخيرة ؛ وأن الظروف كانت قد تهيأت والأرض كانت قد مهدت ؛ وأنها تحب في أوانها المناسب، وفق واقع الأمر الظاهر ، وفق قدر الله المضمّر المغيّب فكان هذا الذي كان .

يقول صاحب الظلال بمناسبة قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ : لقد كانت هنالك وراءهم اثنا عشر سنة من الدعوة والبيان ؛ ومن إيذائهم للمسلمين وفتنتهم عن دينهم ، ومن حرب للمسلمين وتأليب على دولتهم .. ثم من سماحة لهذا الدين ، ورسوله وأهله معهم .. وإنه لتاريخ طويل ، ومع هذا كله ، فلقد كان الإسلام يفتح لهم ذراعيه ؛ فيأمر الله نبيه والمسلمين الذين أودوا وفتنوا وحوربوا وشدوا وقتلوا ، كان يأمرهم أن يكفوا عن المشركين إن هم اختاروا التوبة إلى الله ، والتزموا شعائر الإسلام التي تدل على اعتناقهم هذا الدين واستسلامهم له وقيامهم بفرائضه . وذلك أن الله لا يرد تائباً مهما تكن خطاياهم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

- ١ - لا غدر في الإسلام ، ولا إكراه في الدين ، ولكن عزة وقوة ، وسماحة ووضوح .
- ٢ - إنهاء مبدأ التعاقد أصلاً مع المشركين بعد ذلك ، ببراءة الله ورسوله المطلقة من المشركين ، وباستنكار أن يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله .
- ٣ - الإسلام منهج هداية قبل كل شيء ، وعندما يلجأ إلى الحرب والقتال يكون قد استنفد كل وسائل الحرب ، ويعلم خصمه في إباء وشرف بإعلانها دون غدر .
- ٤ - الإسلام يصون ذمته فمن طلب الأمن من المشركين بلغه ، حتى يبلغ دار قومه دون غدر أو إكراه .

معاني الكلمات :

فما استقاموا لكم : فما أقاموا على العهد معكم .

يظهروا عليكم : يظفروا بكم .

لا يرقبوا : لا يراعوا .

إلا : رحماً أو قرابة أو حلفاً وعهداً .

ذمة : عهداً وأماناً وحققاً .

اشترؤا : ابتاعوا .

نكثوا : نقضوا .

أثمة : رؤساء .



الأهداف الإجرائية والسلوكية .

١ - أن يعلم المسلم شيئاً من أخلاق المشركين .

٢ - أن يشعر المسلم بقيمة حفظ العهود .

٣ - أن يكون المسلم وفياً بالعهود .

المحتوى التربوي :

لما انتهى في مجموعة الآيات السابقة إلى تقرير الأحكام النهائية الأخيرة بين المجتمع المسلم والباقيين من المشركين في الجزيرة ، وهي تعنى إنهاء حالة التعاهد والمهادنة معهم جميعاً .. بعضهم بعد مهلة أربعة أشهر ، وبعضهم بعد انتهاء مدتهم . حيث يؤول الأمر بعد هذه الأحكام إلى حالتين اثنتين : توبة وإقامة للصلاة وإيتاء للزكاة - أى دخول في الإسلام وأداء لفرائضه - أو قتال وحصار وأسر وإرصاد .

لما انتهى إلى الأمر بإنهاء حالة التعاقد على ذلك الوجه أخذ في هذه المجموعة الجديدة من الآيات يقرر عن طريق الاستفهام الاستنكاري - أنه لا ينبغي أن يكون للمشركين عهد عند الله

وعند رسوله ، وقيد هذا الإطلاق في نبذ هذه العهود بالوفاء بعهود من استقاموا على عهودهم إلى مدتهم . وهى دقة بالغة في صياغة النصوص في هذه العلاقات والمعاملات .

وبين الله سبحانه وتعالى استبعاد أن يوفى المشركون بعهودهم ، أو على الأقل بيّن أنه لا يصح للنبي ﷺ ومن معه أن ينتظروا الوفاء من المشركين ؛ لأنهم خانوا الله ورسوله ، ومن يخن الله ورسوله فهو قد استمرأ النفاق ، والنفاق والوفاء بالعهد نقيضان لا يجتمعان ، فكيف يتوقع عند الله ورسوله أن يفوا بعهودهم لهما ، وإذا كانوا كذلك فليس من المعقول أن يوفى الله تعالى لهم بعهده ؛ لأن العهود توجب حقوقا وواجبات متبادلة ، فمن توقع عدم الوفاء وتأكد له النكث في العهد ، فليس عليه وفاء .

واستنكار مبدأ التعاهد لأسبابه التاريخية والواقعية ، بعد استنكاره لأسبابه العقيدية والإيمانية فهم لا يعاهدونكم إلا في حال عجزهم عن التغلب عليكم ، ولو ظهروا عليكم وغلبوكم لفعلوا بكم الأفاعيل في غير مراعاة لعهد قائم بينهم وبينكم ، وفي غير ذمة يرعونها لكم ؛ أو في غير تخرج ولا تدم من فعل يأتونه معكم ! فهم لا يرعون عهدًا ، ولا يقفون كذلك عند حد في التنكيل بكم ، وإذا كانوا اليوم - وأنتم أقوىاء - يرضونكم بأفواههم بالقول اللين والتظاهر بالوفاء بالعهد ، فإن قلوبهم تنغل عليكم بالحقد ، وتأبى أن تقيم على العهد ؛ فما بهم من وفاء لكم ولا ود ! والسبب في ذلك هو أن : ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ فَسِيقُونَ ﴾ ﴿ أَشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

ويقول صاحب الظلال : « وهذا هو السبب الأصيل لهذا الحقد الدفين عليكم ، وإضمار عدم الوفاء بعهودكم ، والانطلاق في التنكيل بكم - لو قدروا - عن كل تخرج ومن كل تدمم .. إنه الفسوق عن دين الله ، والخروج عن هداة ، فلقد أثروا على آيات الله التى جاءتهم ثمنًا قليلًا من عرض هذه الحياة الدنيا يستمسكون به ويخافون فوته ، وقد كانوا يخافون أن يضيع عليهم الإسلام شيئًا من مصالحهم ، أو أن يكلفهم شيئًا من أموالهم ، فصدوا عن سبيل الله بسبب شرائهم هذا الثمن القليل بآيات الله ، صدوا أنفسهم وصدوا غيرهم أما فعلهم هذا فهو الفعل السيئ الذى يقرر الله سوءه الأصيل .

ثم إنهم لا يضمرون هذا الحقد لأشخاصكم ، ولا يتبعون تلك الخطة المنكرة معكم بذواتكم ، إنهم يضطغنون الحقد لكل مؤمن ، ويتبعون هذا المنكر مع كل مسلم ، إنهم يوجهون حقدهم وانتقامهم لهذه الصفة التى أنتم عليها ؛ للإيمان ذاته » .

وتعرض الآيات صفات أخرى للمشركين في قوله - تعالى : ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَاَدِّمَةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴾ فصفة الاعتداء أصيله في الكافرين ، تبدأ من نقطة كرههم للإيمان

ذاته وصدودهم عنه ، وتنتهى بالوقوف في وجهه ، وترىصهم بالمؤمنين ، وعدم مراعاته لعهد معهم ولا صلة ، إذا هم ظهوروا منهم ، وأمنوا بأسهم وقوتهم وعندئذ يفعلون الأفاعيل غير مراعين لعهد قائم ، ولا متحرجين ولا متدعين من منكر يأتونه وهم آمنون .

وتسوق الآيات المنهج الذى يجب أن يتبعه المؤمنون في مواجهة المشركين بأن الركون إليهم لا يتم إلا بدخول هؤلاء المشركين في الإسلام ، وتوبتهم عما مضى من الشرك والاعتداء ، أما من ينكث عهده مع المسلمين ويظعن في الإسلام فيجب مواجهته وهذا ما يلفت الانتباه لوجوب تقوية المعسكر المسلم حتى نرهب الأعداء .

يقول الإمام محمد أبو زهرة : « استنبط الفقهاء من هذه الآية بأن الذمى أو الحربى إذا طعن في الإسلام يقتل ... وقد كان الصحابة يقتلون من يسب النبى ﷺ ولو بالتعريض .. » .

إن هذه الأحكام هى أمر إلهى يزيد إدراكنا لها ذلك التاريخ الطويل من الواقع العملى ، بالإضافة إلى طبيعة المعركة المحتومة بين منهج الله الذى يخرج الناس من العبودية للعباد ويردهم إلى عبادة الله وحده ، وبين منهج الجاهلية التى تعبد الناس للعبيد ، ويواجهه المنهج الحركى الإسلامى بتوجيه من الله - سبحانه ، بهذا الحسم الصريح :

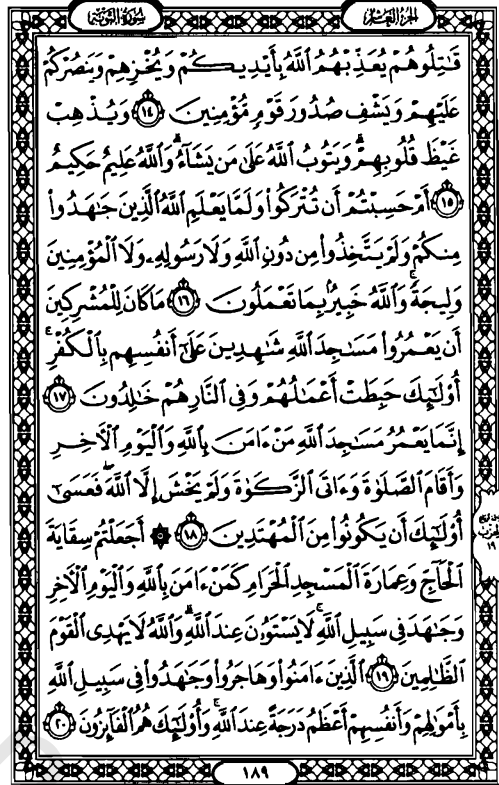
الآيات ترشد المؤمنين أن معارك المسلمين ليست مع أهل الكتاب فقط ، بل إن معارك المسلمين مع الوثنيين وصلت لذروتها في كثير من الفترات قديماً ضد المشركين لأنبياء الله : نوح ، وصالح وإبراهيم وشعيب وموسى وعيسى عليهم السلام صلوات الله وسلامه ومعاداة المشركين لرسول الله محمد ﷺ ، ثم مذابح مشركى التتار مع المسلمين ، ولم ولن ينتهى صراع المشركين واليهود مع المسلمين ، وبين ذلك قوله - تعالى : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدُوًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَهُهُمُ الْيَهُودُ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۚ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيكَ ذَلِكَ بَأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَزُهَبَانَا وَأَنْهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ﴾ (المائدة) .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

- ١ - التحذير من الغدر والخيانة .
- ٢ - مشروعية القتال في الإسلام لرد العدوان وتأمين العقيدة وحماية المسلمين .
- ٣ - استبعاد أن يكون هناك عهد موثوق للمشركين .
- ٤ - وجوب إتمام العهد إلى المدة المحددة لمن لم يكن نقض عهده من المشركين أو غيرهم .

معاني الكلمات :

- غيظ قلوبهم : غضبها وحزنها الشديد .
- ولما يعلم : ولم يعلم حتى وقت التكلم (أى لم يظهر منهم) .
- وليجة : أعواناً وحاشية وأصحاب سر وأولياء .
- حبطت أعمالهم : بطلت وذابت أجورها لكفرهم .
- يعمر مساجد الله : يُعمرها بالذكر والعبادة .
- فعسى : فيرجى .
- سقاية الحاج : سقى الحجيج الماء .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

- ١ - أن نعلم مشروعية قتال المشركين والحكمة من التحريض عليه .
- ٢ - أن نعرف المقصود بعمارة مساجد الله ومن أحق الناس بعمارتها .
- ٣ - دحض دعاوى المشركين بأحقية عمارة مساجد الله .
- ٤ - بيان أهمية الإخلاص والتقوى في كل عمل .

المحتوى التربوي :

في هذه الآيات يستجيش مشاعر المؤمنين بتلك الذكريات والوقائع والأحداث ، وهم يتذكرون مبادأة المشركين لهم بالعداء والقتال - بطراً وطغياناً - وفي غمرة هذه الأحداث يحرض المؤمنين على القتال قائلاً لهم : قاتلوهم يجعلكم الله ستار قدرته ، وأداة مشيئته ، فيعذبهم بأيديكم ، ويغزهم بالهزيمة وهم يتخيلون بالقوة ، وينصرم عليهم ويشف صدور جماعة من المؤمنين ممن آذاهم وشردهم المشركون يشفها من غيظها المكظوم ، بانتصار الحق كاملاً ، وهزيمة الباطل ، وتشريد المبطلين .

وليس هذا وحده ولكن خيراً آخر يُنتظر وثواباً آخر يُنال : فانتصار المسلمين قد يرد بعض المشركين إلى الإيمان ، ويفتح بصيرتهم على الهدى حين يرون المسلمين ينصرون ، ويحسون أن قوة غير قوة البشر تؤيدهم ، ويرون آثار الإيمان في مواقفهم - وهذا ما كان فعلاً - وعندئذ ينال المسلمون المجاهدون أجر جهادهم ، وأجر هداية الضالين بأيديهم ؛ وينال الإسلام قوة جديدة تضاف إلى قوته بهؤلاء المهتدين التائبين .

يقول صاحب الظلال : « إن بروز قوة الإسلام وتقريبها يستهوى قلوباً كثيرة تصد عن الإسلام الضعيف ، أو الإسلام المجهول القوة والنفوذ . وإن الدعوة إلى الإسلام لتختصر نصف الطريق حين تكون الجماعة المسلمة بادية القوة ، مرهوبة الجانب ، عزيزة الجانب .

على أن الله - سبحانه - وهو يرى الجماعة المسلمة بالمنهج القرآني الفريد لم يكن يعدها وهى فى مكة قلة قليلة مستضعفة مطاردة ، إلا وعداً واحداً وهو الجنة ، ولم يكن يأمرها إلا أمراً واحداً هو هو الصبر ، فلما أن صبرت وطلبت الجنة وحدها دون الغلب ، آتاه الله النصر ، وجعل يحرضها عليه ويشفى صدورهم به . ذلك أن الغلب والنصر عندئذ لم يكن لها ولكن لدينه وكلمته ، وإن هى إلا ستار لقدرته .

ثم إنه لم يكن بد أن يجاهد المسلمون المشركين كافة ، وأن تنبذ عهود المشركين كافة ، وأن يقف المسلمون إزاءهم صفًا ، لم يكن بد من ذلك لكشف النوايا والخبايا ، ولإزالة الأستار التى يقف خلفها من لم يتجرد للعقيدة ، والأعذار التى يحتج بها من يتعاملون مع المشركين للكسب ، ومن يوادونهم لأصرة من قربى أو مصلحة ، لم يكن بد من إزالة هذه الأستار والمعاذير ، وإعلان المفاصلة للجميع ، لينكشف الذين يخبثون فى قلوبهم خبيثة ويتخذون من دون الله ورسوله والمؤمنين وليجة ، يلجئون منها إلى مصالحهم وروابطهم مع المشركين ، فى ظل العلاقات غير المتميزة أو الواضحة بين المعسكرات المختلفة .

وإنه لمن مصلحة الجماعة ، ومن مصلحة العقيدة ، أن تهتك الأستار وتكشف الولايع ، وتعرف المداخل ، فيمتاز المكافحون المخلصون ، ويكشف المدارون الملتون ، ويعرف كلا الفريقين على حقيقته ، وإن كان يعلمهم من قبل .

وبعد البراءة والإعلان لم يبق عذر ولا حجة لمن لا يقاتل المشركين ؛ ولم يعد هناك تردد فى حرمانهم زيارة البيت أو عمارته ، وقد كانوا يقومون بها فى الجاهلية ، وهنا ينكر السياق على المشركين أن يكون لهم الحق فى أن يعمروا بيوت الله ، فهو حق خالص للمؤمنين بالله ، القائمين بفرائضه وما كانت عمارة البيت فى الجاهلية وسقاية الحاج لتغير من هذه القاعدة ؛ لأن العبادة تعبير عن العقيدة ، فإذا لم تصح العقيدة لم تصح العبادة ، وأداء الشعائر وعمارة المساجد ليست

بشيء ما لم تعمّر القلوب بالاعتقاد الإيماني الصحيح ، وبالعامل الواقع الصريح ، وبالتجرد لله في العمل والعبادة على السواء .

هذه هي القاعدة في استحقاق عمارة بيوت الله ، وفي تقويم العبادات والشعائر على السواء فما يجوز أن يسوى الذين كانوا يعمرّون الكعبة ويسقون الحجيج في الجاهلية ، وعقيدتهم ليست خالصة لله ، ولا نصيب لهم من عمل أو جهاد ، لا يجوز أن يسوى هؤلاء - لمجرد عمارتهم للبيت وخدمتهم للحجيج - بالذين آمنوا إيماناً صحيحاً ، وجاهدوا في سبيل الله وإعلان كلمته .

وميزان الله هو الميزان وتقديره هو التقدير : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ المشركين الذين لا يدينون دين الله الحق ، ولا يخلصون عقيدتهم من الشرك ، ولو كانوا يعمرّون البيت ويسقون الحجيج ، وينتهى هذا المعنى بتقرير فضل المؤمنين المهاجرين المجاهدين ، وما ينتظرهم من رحمة ورضوان ، ومن نعيم مُقيم وأجر عظيم .

ويقول صاحب الظلال : وأفضل التفضيل هنا في قوله : ﴿ أَعْظُمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ ﴾ ليس على وجهه ، فهو لا يعنى أن للآخرين درجة أقل ، إنها هو التفضيل المطلق ، فالآخرون : ﴿ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ فلا مفاضلة بينهم وبين المؤمنين المهاجرين المجاهدين في درجة ولا نعيم .

يقول صاحب الأساس : بمناسبة قوله : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ يقول : وعلى الرواية التي تفيد أن الخطاب للمسلمين يمكن أن نستخرج من الآية معنى تكمله نصوص كثيرة : إن هناك حسنات وهناك سيئات ، ولقد أعطى الشارع للسيئات أحجاماً ، كما أعطى للحسنات أحجاماً ، فالشرك أكبر من الربا ، والربا أكبر من الزنا ، والتوحيد أعظم من الصلاة ، والجهاد أفضل من مجاورة المسجد الحرام وهكذا ...

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - الكفر والشرك يبطلان جميع الأعمال - الفاضلة - فلا يكون لأصحابها جزاء عند الله يوم القيامة .

٢ - عمارة المساجد جدير بها أهل الإيمان الذين يعظمون حرمت الله .

٣ - عمارة المساجد تشمل بناءها ، وإصلاحها والإقامة فيها ، ولزومها للعبادة من صلاة وذكر ومدارس للقرآن وتعليم وتعلّم ، واعتكاف وغير ذلك من الأمور المعنوية .

٤ - وجوب الإخلاص لله في القول والعمل .

معاني الكلمات :

مقيم : دائم .

أولياء : أصدقاء وأحباب .

استحبوا : اختاروا .

عشيرتكم : أقرباؤكم .

اقتربتموها : اكتسبتموها .

كساده : بوارها .

فتربصوا : فانتظروا .

الفاسقين : الخارجين عن دين الله .

بما رحبت : مع رحبها أى وسعها .

وليتم مدبرين : انهزمتم



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - أن نعرف قدر العقيدة ونعجز لها مما سواها من الصلات .

٢ - أن نعتبر بموازين النصر والهزيمة من الآيات .

٣ - أن نتعلم كيف نحب رسول الله ﷺ ونؤثر العقيدة على ما سواها .

المحتوى التربوي :

تمضى هذه الآيات في خطاها المباركة في تجريد المشاعر والصلوات في قلوب الجماعة المؤمنة ، وتمحيصها لله ولدين الله ؛ فيدعو إلى تخليصها من وشائج القربى والمصلحة واللذة ، ويجمع كل لذائذ البشر ، وكل وشائج الحياة ، فيضمها في كفة ، ويضع حب الله ورسوله وحب الجهاد في سبيله في الكفة الأخرى ، ويدع للمسلمين الخيار .

ويقول صاحب الظلال : إن هذه العقيدة لا تحمل لها في القلب شريكاً ؛ فإما تجرد لها ، وإما انسلاخ منها ، وليس المطلوب أن ينقطع المسلم عن الأهل والعشيرة والزوج والولد والمال والعمل والمتاع واللذة ، ولا أن يترهب ويزهّد في طيبات الحياة .. كلا إنها تريد هذه العقيدة أن يخلص لها القلب ، ويخلص لها الحب ، وأن تكون هي المسيطرة والحاكمة ، وهي المحركة

والدافعة . فإذا تم لها هذا فلا حرج عندئذ أن يستمتع المسلم بكل طيبات الحياة ؛ على أن يكون مستعداً لنبتها كلها في اللحظة التي تتعارض مع مطالب العقيدة .

ومفروق الطريق هو أن تسيطر العقيدة أو يسيطر المتاع ، وأن تكون الكلمة الأولى للعقيدة أو لعرض من أعراض هذه الدنيا ، فإذا اطمأن المسلم إلى أن قلبه خالص لعقيدته ، فلا عليه بعد هذا أن يستمتع بالأبناء والإخوة والزوج والعشيرة ؛ ولا عليه أن يتخذ الأموال والمتاجر والمساكن ؛ ولا عليه أن يستمتع بزيينة الله والطيبات من الرزق - في غير سرف ولا نخيلة بل إن المتاع بها حينئذ لمستحب ، باعتباره لوئاً من ألوان الشكر لله الذي أنعم بها ليمتع بها عباده، وهم يذكرون أنه الرازق المنعم الوهاب .

ولا يكتفى السياق بتقرير المبدأ ، بل يأخذ في استعراض ألوان الوشائج والمطامع واللذائذ، ليضعها كلها في كفة ، ويضع العقيدة ومقتضياتها في الكفة الأخرى : الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة « وشيعة الدم والنسب والقرابة والزواج » والأموال والتجارة (مطمع الفطرة ورغبتها) والمساكن المريحة (متاع الحياة ولذتها) .

وفي الكفة الأخرى : حب الله ورسوله وحب الجهاد في سبيله - الجهاد بكل مقتضياته وبكل مشقاته . الجهاد وما يتبعه من تعب ونصب، وما يتبعه من تضيق وحرمان ، وما يتبعه من جراح واستشهاد ، وهو - بعد هذا كله - « الجهاد في سبيل الله » مجرداً من الصيت والذكر والظهور : مجرداً من المباهاة والفخر والخيلاء ، مجرداً من إحساس أهل الأرض به وإشارتهم إليه وإشارتهم بصاحبه ، وإلا فلا أجر عليه ولا ثواب .

وهذا التجرد لا يطالب به الفرد وحده ، إنما تطالب به الجماعة المسلمة والدولة المسلمة فما يجوز أن يكون هناك اعتبار لعلاقة أو مصلحة يرتفع على مقتضيات العقيدة في الله ومقتضيات الجهاد في سبيل الله .

وما يكلف الله الفئمة المؤمنة هذا التكليف ، إلا وهو يعلم أن فطرتها تطيقه - فالله لا يكلف نفساً إلا وسعها - وإنه لمن رحمة الله بعباده أن أودع فطرتهم هذه الطاقة العالية من التجرد والاحتمال ، وأودع فيها الشعور بلذة علوية لذلك التجرد لا تعدلها لذائذ الأرض كلها ، لذة الشعور بالاتصال بالله ، ولذة الرجاء في رضوان الله ، ولذة الاستعلاء على الضعف والهبوط ، والخلاص من ثقله اللحم والدم ، والارتفاع إلى الأفق المشرق الوضئ ، فإذا غلبتها ثقله الأرض ففى التطلع إلى الأفق ما يجدد الرغبة الطامعة في الخلاص والفساك .

ويذكرهم الله باستعراض صفحة من الواقع الذي عاشه المسلمون إذ ذاك منذ قريب المواطن التي نصرهم الله فيها ، ولم تكن لهم قوة ولا عُدّة ، ويوم حنين الذي هزموا فيه بكثرتهم ثم

نصرهم الله بقوته ، يوم أن انضم إلى جيش الفتح ألفان فقط من الطلقاء ! يوم أن غفلت قلوب المسلمين لحظات عن الله مأخوذة بالكثرة في العدد والعتاد ليعلم المؤمنون أن التجرد لله ، وتوثيق الصلة به هي عدة النصر التي لا تحذهم حين تحذهم الكثرة في العدد والعتاد ، وحين يحذهم المال والإخوان والأولاد .

ويقول صاحب الظلال : ولقد كان نصر الله لهم في المواطن الكثيرة قريباً من ذاكرتهم لا يحتاج إلى أكثر من الإشارة . فأما وقعة حنين فكانت بعد فتح مكة في شوال سنة ثمان من الهجرة ، وذلك لما فرغ ﷺ من فتح مكة ، وتمهدت أمورها ، وأسلم عامة أهلها ، وأطلقهم رسول الله ﷺ فبلغه أن هوازن جمعوا له ليقاتلوه ، فخرج إليهم رسول الله ﷺ في جيشه الذي جاء معه للفتح ، وكانت الكرة للمسلمين في أول الأمر ، ثم دارت رحى القتال وتبدل النصر إلى انكسار - بسبب الإعجاب بالكثرة وحين غفلوا عن سبب النصر الأول ، فردهم الله بالهزيمة في أول المعركة إليه ، ثم نصرهم بالقلة المؤمنة التي ثبتت مع رسول الله ﷺ والتصقت به .

والسياق يعرض المعركة هنا ؛ ليعرض نتائج الانشغال عن الله ، والاعتماد على قوة غير قوته ، ليكشف لنا عن حقيقة أخرى ضمنية ، وهي أن الكثرة العددية ليست بشيء ، إنما هي القلة العارفة المتصلة الثابتة المتجردة للعقيدة .

وإن الكثرة لتكون أحياناً سبباً في الهزيمة ، لأن بعض الداخلين فيها ، التائهين في غمارها ممن لم يدركوا حقيقة العقيدة التي ينساقون في تيارها ، تنزلزل أقدامهم وترتجف في ساعة الشدة ؛ فيشيعون الاضطراب والهزيمة في الصفوف ، فوق ما تحذع الكثرة أصحابها فتجعلهم يتهاونون في توثيق صلتهم بالله ، انشغالاً بهذه الكثرة الظاهرة عن اليقظة لسر النصر في الحياة . لقد قامت كل عقيدة بالصفوة المختارة ، لا بالزبد الذي يذهب جفاء ، ولا بالهشيم الذي تذروه الرياح .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - العبرة في المعارك ليست بقوة السلاح ولا بكثرة العدد ، وإنما بالإيمان الصادق والثبات والإخلاص لله .

٢ - لثبات القائد وشجاعته أثر عظيم في تحقيق النصر ، والاغترار بالقوة والكثرة من أسباب الهزيمة .

٣ - حب أصحاب الرسول ﷺ له ، وشجاعة القائد النادرة ، وفضل الله عليه وعلى المؤمنين من أسباب النصر .

معاني الكلمات :

نجس : قدر ، لحث باطنهم وفساد عقيدتهم .

خفتم عيلة : خفتم فقرا .

الذين أوتوا الكتاب : اليهود والنصارى .

عن يد : متقادين أو عن قهر وقوة .

صاغرون : أذلاء .

يضاهئون : يشابهون في الكفر .

أنى يؤفكون ؟ : كيف يصرفون عن الحق .

أجبارهم : علماء اليهود .

رهبانهم : متعبدى النصارى .

أرباباً : معبودات أطاعوهم كما يطاع الرب .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - بيان العلة من وجوب قتال أهل الكفر والعدوان .

٢ - أن نقف على الأحكام والتعديلات النهائية في معاملة أهل الكتاب .

٣ - أن ننزه الله - عز وجل - عن الولد والند والشريك وعن مشابهة خلقه .

المحتوى التربوي :

في هذه الآيات ، ينهى السياق القول في شأن المشركين ، ويلقى الكلمة الباقية فيهم إلى يوم الدين بأنهم نجس ، ويجسم التعبير نجاسة أرواحهم فيجعلها ماهيتهم وكيانهم ، فهم بكليتهم وبحقيقتهم نجس ، يستقذره الحس ، ويتطهر منه المتطهرون ! وهو النجس المعنوي لا الحسى في الحقيقة ، فأجسامهم ليست نجسة بذاتها ، إنما هي طريقة التعبير القرآنية بالتجسيم .

ولهذا النجس أمر - عز وجل - ألا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ، وتلك غاية في تحريم وجودهم بالمسجد الحرام ، حتى لينصب النهى على مجرد القرب منه !

ولكن الموسم الاقتصادي الذي ينتظره أهل مكة ؛ والتجارة التي يعيش عليها معظم الظاهرين في الجزيرة ؛ ورحلة الشتاء والصيف التي تكاد تقوم عليها الحياة ، إنها كلها ستعرض للضياع بمنع المشركين من الحج ، وإعلان الجهاد العام على المشركين كافة .. نعم ! ولكنها العقيدة ، والله يريد أن تخلص القلوب كلها للعقيدة .

وبعد ذلك ، فالله هو المتكفل بأمر الرزق من وراء الأسباب المعهودة المألوفة . وحين يشاء الله يستبدل أسباباً بأسباب ؛ وحين يشاء يغلق باباً ويفتح الأبواب ، يدبر الأمر كله عن علم وعن حكمة ، وعن تقدير وحساب .

ويقول صاحب النار : بمناسبة قوله - تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ ؛ يقول : وأما الغنى من فضل الله فهو أعم مما ورد في الروايات معينا ومبها ، فقد أغنى الله المؤمنين من العرب السابقين إلى الإسلام ، ثم من سائر المسلمين جميع أنواع الغنى ، فتح لهم البلاد ، وسخر لهم العباد ، فكثر الغنائم والخراج ، ومهد لهم سبل الملك والمملك ، وبسط لهم في الرزق ، من أمانة وتجارة وزراعة وصناعة ، وكان نصيب مكة نفسها من ذلك عظيماً بكثرة الحاج وأمن طرق التجارة .

وقيد هذا الغنى بقوله : ﴿ فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ للدلالة على أن هذا الوعد إنما يكون مستقبلاً لا في الحال ، وعلى أنه واسع بسعة فضله - تعالى - وغيب لا يخطر لهم أكثره ببال وقد صدق وعده به فكان من معجزات القرآن .

ثم ينتقل السياق لتقرير الأحكام النهائية في العلاقات بين المجتمع المسلم وأهل الكتاب ، وتحوى هذه الأحكام بعض التعديلات الأساسية في القواعد التي كانت تقوم عليها العلاقات من قبل بين المجتمع المسلم وأهل الكتاب - وبخاصة النصارى منهم - فلقد كانت وقعت المواقع قبل ذلك مع اليهود ؛ ولكن حتى هذا الوقت لم يكن قد وقع منها شيء مع النصارى .

والتعديل البارز في هذه الأحكام الجديدة هو الأمر بقتال أهل الكتاب المنحرفين عن دين الله حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، فلم تعد تقبل منهم عهود موادة ومهادنة إلا على هذا الأساس . أساس إعطاء الجزية ، وفي هذه الحالة تنقرر لهم حقوق الذمى المعاهد ؛ ويقوم السلام بينهم وبين المسلمين ، فأما إذا هم اقتنعوا بالإسلام عقيده فاعتنقوه فهم من المسلمين .

يقول صاحب الظلال : وهذا التعديل الأخير في قواعد التعامل بين المجتمع المسلم وأهل الكتاب لا يفهم على طبيعته إلا بالفقه المستنير لطبيعة العلاقات الحتمية بين منهج الله ومنهج

الجاهلية من ناحية . ثم لطبيعة المنهج الحركى الإسلامى ، ومراحل المتعددة ، ووسائله المتجددة المكافئة للواقع البشرى المتغير من الناحية الأخرى .

ومن أجل هذا يحدد السياق القرآنى فى هذا المقطع من السورة طبيعة هذه العلاقات ، حدد حقيقة ما عليه أهل الكتاب ؛ ونص على أنه شرك وكفر وباطل والنصوص تقرر :

أولاً : أنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر .

ثانياً : أنهم لا يحرمون ما حرم الله ورسوله .

ثالثاً : أنهم لا يدينون دين الله .

رابعاً : أن اليهود منهم قالوا : عزيز ابن الله ، وأن النصارى منهم قالت : المسيح ابن الله تعالى الله سبحانه عن قولهم علواً كبيراً ، وأنهم فى هذين القولين يضاهئون قول الذين كفروا من قبل الوثنيين الإغريق أو الوثنيين الرومان .

خامساً : أنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، كما اتخذوا المسيح رباً ، وأنهم بهذا خالفوا عما أمروا به من توحيد الله والدينونة له وحده ، وأنهم لهذا مشركون !

سادساً : أنهم محاربون لدين الله يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم وأنهم لهذا كافرون !

سابعاً : أن كثيراً من أحبارهم ورهبانهم يأكلون أموال الناس بالباطل ، ويصدون عن سبيل الله .

وعلى أساس هذه الأوصاف وهذا التحديد لحقيقة ما عليه أهل الكتاب ، قرر الأحكام النهائية التى تقوم عليها العلاقات بينهم وبين المؤمنين بدين الله ، والقائمين على منهج الله .

ما ترشدنا إليه الآيات تريبوياً :

١ - باب التوبة مفتوح أمام الكافرين إذا أسلموا وتركوا ما عليه من الكفر والضلال ، ورحمة الله تشملهم فالإسلام يجب ما قبله .

٢ - وجوب قتال أهل الكفر والعدوان الذين رفضوا الدخول فى دين الله والتنعن فى ظلاله الوارفة وأحكامه العادلة .

٣ - الأمر بدعوة أهل الكتاب - اليهود والنصارى - إلى الدخول فى الإسلام ، فإن رفضوا لم نقاتلهم ، وإنما يدفعون الجزية فإن رفضوا دفع الجزية ، قوتلوا حتى يرجعوا إلى دين الله ، ويرضوا بحكمه متقادين خاضعين .

٤ - فساد عقيدة أهل الكتاب فى نسبة الولد إلى الله ، والله - تعالى - منزّه عن الشريك وعن مشابهة خلقه .

معاني الكلمات :

- نور الله : شرعه وبراهينه .
 بأقواهم : بأقوالهم فيه .
 يتم : يظهر .
 يظهره : يعليه .
 على الدين كله : على جميع الأديان المخالفة له .
 يأكلون : يأخذون .
 بشرهم : أخبرهم وأنذرهم .
 تكوى : تحرق .
 كتاب الله : اللوح المحفوظ .
 الدين القيم : الدين المستقيم ملة إبراهيم .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

- ١ - أن تعرف حقيقة أهل الكتاب وطبيعة موقفهم من دين الله .
- ٢ - أن تعرف عاقبة الذين يكتنون الذهب والفضة ولا ينفقونها .
- ٣ - أن نعظم حرمة الأشهر الحرم ، ونلتزم بأوامر الله فيها .

المحتوى التربوي :

تمضي هذه الآيات في تحريض المؤمنين على القتال ، وذلك لأن أهل الكتب لا يقفون عند حد الانحراف عن دين الحق ، وعبادة أرباب من دون الله وعدم الإيمان بالله وباليوم الآخر - وفق المفهوم الصحيح للإيمان بالله واليوم الآخر - إنما هم كذلك يعلنون الحرب على دين الحق ، ويريدون إطفاء نور الله في الأرض المتمثل في هذا الدين ، وفي الدعوة التي تنطلق به في الأرض ، وفي المنهج الذي يصوغ على وفقه حياة البشر فهم « يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَقْوَاهِمَ » فهم محاربون لنور الله . وسواء بما يطلقونه من أكاذيب ودسائس وفتن ، أو بما يجرضون به أتباعهم

وأشباعهم على حرب هذا الدين وأهله ، والوقوف سدًا في وجهه - كما كان هو الواقع الذي تواجهه هذه النصوص وكما هو الواقع على مدار التاريخ .

ولكن أنى لهم ذلك والله يأبى إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون وستته في ذلك الوعد الحق لا تتبدل ولا تتغير ، في إتمام نوره بإظهار دينه ولو كره الكافرون .

وكما يقول صاحب الظلال : هو وعد تطمئن له قلوب الذين آمنوا ، فيدفعهم هذا إلى المضي في الطريق على المشقة والأواء في الطريق ؛ وعلى الكيد والحرب من الكافرين كما أنه يتضمن في ثنائه الوعيد لهؤلاء الكافرين وأمثالهم على مدار الزمان !

ثم يخطو السياق الخطوة الأخيرة في هذا المقطع من السورة ، مصورًا كيف أن أهل الكتاب لا يجرمون ما حرم الله ورسوله ، بعد ما أشار إلى هذه الحقيقة في قوله ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ ، التي فسرها رسول الله ﷺ بأنهم « أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال ، فاتبعوهم » فبين أنهم إذن لا يجرمون ما حرم الله ورسوله ، إنما يجرمون ما حرمه عليهم الأحرار والرهبان !

وتستطرد الآيات في بيان حقيقة أهل الكتاب ، فهؤلاء الأحرار والرهبان يجعلون من أنفسهم ويجعلهم قومهم أربابًا تتبع وتطاع ، وهم فيما يشرون يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله .

منها ما يأخذونه على فتاوى تحليل الحرام وتحريم الحلال لصالح من يملكون المال أو السلطان .

ومنها ما يأخذونه ويجمعونه من أموال الناس لمحاربة دين الحق ؛ وقد كان الرهبان والأساقفة والبابوات يجمعون مئات الملايين في الحروب الصليبية ، وما يزالون يجمعونها للتبشير والاستشراق للصد عن سبيل الله .

ويصور القرآن الكريم عذابهم في الآخرة بما كنزوا ، وعذاب كل من يكتز الذهب والفضة ولا ينفقها في سبيل الله ؛ ويرسم تفاصيل هذا المشهد المرعب - كما ورد بالآيات .

يحذر صاحب الظلال من نظرات البعض لأهل الكتاب دين بقوله : « إن تعرية أهل الكتاب من شبهة أنهم على دين الله ، ألزم وأشد ضرورة من بيان حال المشركين الصريحين في شركهم الشاهدين على أنفسهم بالكفر بظاهر عقائدهم وشعائهم .

ثم يستطرد السياق في إزالة المعوقات التي كانت قائمة في طريق النفرة إلى جهاد الروم وحلفائهم من نصارى العرب في شمال الجزيرة، ذلك أن الاستنفار لهذه الغزوة - تبوك - كان في رجب من الأشهر الحُرْم، ولكن كانت هناك مُلابسة واقعة ، وهى أن رجبًا لهذا العام لم يكن في

موعد الحقيقى ! وكذلك بسبب « النسيء » الذى سيرد فى الآية التى تلى هذه الآية ! فكأن رجبا كان فى جمادى الآخرة . وسر هذا الاضطراب كله هو اضطراب الجاهلية فى تقاليدها فتارة يقدمون الشهور ، وتارة أخرى يقدمونها حسب أهوائهم ووفق مصالحهم .

والنص هنا يرد معيار الزمن ، وتحديد دورانه إلى طبيعة الكون التى فطره الله عليها . وإلى أصل الخلقة خلقة السموات والأرض ، ويشير إلى أن هناك دورة زمنية ثابتة ، مقسمة إلى اثنى عشر شهراً يستدل على ثباتها بثبات عدة الأشهر فلا تزيد فى دورة وتنقص فى دورة ، وأن ذلك فى كتاب الله - أى فى ناموسه الذى أقام عليه نظام هذا الكون ، فهى ثابتة على نظامها ؛ لا تتخلف ولا تتعرض للنقص والزيادة ؛ لأنها تتم وفق قانون ثابت .

وهذا من سمت هذا الدين القيم الأصيل الذى تقوم به السموات والأرض ، منذ أن خلق الله السموات والأرض ، ويأمر المؤمنين ألا يظلموا أنفسهم فى هذه الأشهر الحرم التى يتصل تحريمها بناموس كونه تقوم عليه السموات والأرض ، ذلك الناموس هو أن الله هو المشرع للناس كما أنه هو المشرع للكون .. لا تظلموا أنفسكم بإحلال حرمتها التى أرادها الله لتكون فترة أمان وواحة سلام ؛ فتخالقوا عن إرادة الله .

وفى هذه المخالفة ظلم للأنفس بتعريضها لعذاب الله فى الآخرة ، وتعريضها للخوف والقلق فى الأرض ، حين تستحيل كلها جحيماً حربية ، لا هدنة فيها ولا سلام .

ويأمرهم بقتال المشركين كافة كما يقاتلونهم كذلك فى غير الأشهر الحرم ، ما لم يبدأ المشركون بالقتال فيتعين رد الاعتداء فى تلك الأشهر ؛ لأن القتال من جانب واحد يضعف القوة الخيرة ، المنوط بها حفظ الحرمات ، ووقف القوة الشريرة المعتدية ويشيع الفساد فى الأرض ، والفوضى فى النواميس ، فرد الاعتداء فى هذه الحالة وسيلة لحفظ الأشهر الحرم ، فلا يُعتدى عليها ولا تهان . ما ترشدنا إليه الآيات تروياً :

- ١ - التحذير من أهل الكتاب وموالاتهم ، وبيان أنهم كالمشركين يسعون لإطفاء نور الله .
- ٢ - أن المستقبل للإسلام ، رغم كيد القائدين من الكفار والفاستقين ، فهو وعد الله الأكيد .
- ٣ - التحذير من علماء السوء ، وعُباد الضلال فى كل زمان ومكان .
- ٤ - الإسلام لا يحارب الادخار ، بل يدعو إليه ولكن علينا أن نخرج زكاة أموالنا وننفق منها فى سبيل الله .

٥ - الجزء من جنس العمل ، فمن كنز مالا ولم ينفقه فى وجوه الخير ، عُدب به يوم القيامة .

٦ - تعظيم حرمة الأشهر الحرم ، وتحريم القتال فيها إلا إذا اعتدى علينا فيها .

معاني الكلمات :

النسيء : تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر .

ليواطثوا : ليوافقوا .

عدة : عدد .

انفروا : اخرجوا للقتال « في غزوة تبوك » .

انناقلتم : تباطأتم وملتم عن الجهاد .

ثاني اثنين : أحد اثنين والآخر أبو بكر

الصادق عليه السلام

سكيتته : هدوء النفس واطمئنانها .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

- ١ - أن نلتزم بما أمر به الشرع دون تحريم الحلال أو تحليل الحرام .
- ٢ - أن نحذر الكفر والفسق ؛ لأنها حائل دون هداية الله وتوفيقه .
- ٣ - بيان أهمية الجهاد في الإسلام ووجوب النفرة في سبيل الله .
- ٤ - بيان حقارة الدنيا وضآلتها أمام الآخرة .

المحتوى التربوي :

قررت الآيات السابقة أن النصر للمتقين الذين يتقون أن ينتهكوا حرمان الله ، وأن يحلوا ما حرم الله ، وأن يحرفوا نوااميس الله ، فلا يقعد المسلمون عن جهاد المشركين كافة ، ولا يتخوفوا من الجهاد الشامل ، فهو جهاد في سبيل الله يقفون فيه عند حدوده وآدابه ، ويتوجهون به إلى الله يراقبونه في السر والعلانية ، فلهم النصر ؛ لأن الله معهم ، ومن كان الله معه فهو المنصور بلا جدال .

ثم تأتي آية النسئ وفيها قال مجاهد عليه السلام : كان رجل من بنى كنانة يأتي كل عام إلى الموسم على حمار له فيقول : أيها الناس : إني لا أعاب ولا أخاب ، ولا مرد لما أقول . إنا قد حررنا المحرم وأخرنا صفر ثم يجيء العام المقبل بعده فيقول مثل مقالته ، ويقول : إنا قد حررنا صفر وأخرنا المحرم فهو قوله : ﴿يُؤَاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ قال : يعنى الأربعة ، فيحلوا ما حرم الله تأخير هذا الشهر الحرام .

وما يفعلوه هذا إنما هو زيادة في الكفر - كفر مزاوله التشريع إلى جانب كفر الاعتقاد ، ويخدعون بها فيه من تلاعب وتحريف وتأويل ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾ فإذا هم يرون سوء حسنًا ، ويرون قبح الانحراف جمالًا ، ولا يدركون ما هم فيه من ضلال ولجاج في الكفر بهذه الأعمال : ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ الذين ستروا قلوبهم عن الهدى ، وستروا دلائل الهدى عن قلوبهم ، فاستحقوا بذلك أن يتركهم الله لما هم فيه من ظلام وضلال .

ثم ينتقل السياق لعتاب المتخلفين والتهديد بعاقبة الشاقل عن الجهاد في سبيل الله ، والتذكير لهم بما كان من نصر الله لرسوله ، قبل أن يكون معه منهم أحد ، وبقدرته على إعادة هذا النصر بدونهم ، فلا ينالهم عندئذ إلا إثم التخلف والتقصير .

يقول صاحب الظلال : « إن النفرة للجهاد في سبيل الله انطلاق من قيد الأرض ، وارتفاع على ثقله اللحم والدم ؛ وتحقيق للمعنى العلوى في الإنسان ، وتغليب لعنصر الشوق المجنح في كيانه على عنصر القيد والضرورة ، وتطلع إلى الخلود الممتد ، وخلاص من الفناء المحدود ، وما يحجم ذو عقيدة في الله عن النفرة للجهاد في سبيله ، إلا وفي هذه العقيدة دخل ، وفي إيمان صاحبها بها وهن ، لذلك يقول الرسول ﷺ : « من مات ولم يغز ، ولم يحدث نفسه بغزو ، مات على شعبة من شعب النفاق » فالنفاق - وهو دخل في العقيدة يعوقها عن الصحة والكمال - هو الذى يقعد بمن يزعم أنه على عقيدة عن الجهاد في سبيل الله - خشية الموت أو الفقر ، والآجال بيد الله ، والرزق من عند الله وما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل .

ومن ثم يتوجه الخطاب إليهم بالتهديد : بالعذاب - عذاب الذلة - التى تصيب القاعدين عن الجهاد والكفاح والغلبة عليهم للأعداء ، والحرمان من الخيرات واستغلالها للمعادين وهم مع ذلك كله يخسرون من النفوس والأموال أضعاف ما يخسرون في الكفاح في الجهاد ؛ ويقدمون على مذابح الذل أضعاف ما تتطلبه منهم الكرامة لو قدموا لها الفداء . وما من أمة تركت الجهاد وإلا ضرب الله عليها الذل ، فدفعت مرغمة صاغرة لأعدائها أضعاف ما كان يتطلبه منها كفاح الأعداء .. » .

﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يقومون على العقيدة ، ويؤدون ثمن العزة ، ويستعلون على أعداء الله ولا يقام وزن للقاعدين ولا يقدمون ولا يؤخرون في الحساب ولا يعجز الله شيئاً أن يذهب بكم ؛ ويضرب الله لهم المثل من الواقع التاريخي الذي يعلمونه ، على نصره الله لرسوله بلا عون منهم ولا ولاء ، والنصر من عند الله يؤتيه من يشاء .

ذلك حين ضاقت قريش رسول الله ﷺ ذرعاً ، كما تضيق القوة الغاشمة - دائماً - بكلمة الحق ، لا تملك لها دفعاً ولا تطيق عليها صبراً ، فاثمرت به ، وقررت أن تتخلص منه فأطلعه الله على ما اثمتم ، وأوحى إليه بالخروج ، فخرج وحيداً إلا من صاحبه الصديق ، لا جيش ولا عدة ، وأعداؤه كثر ، وقوتهم إلى قوته ظاهرة .

والقوم على إثرهما يتعقبون ، والصديق ﷺ يجزع - لا على نفسه ولكن على صاحبه - أن يطلعوا عليها فيخلصوا إلى صاحبه الحبيب ، يقول له : لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه والرسول ﷺ وقد أنزل الله سكينته على - قلبه - يهدئ من روعه ويطمئن من قلبه فيقول له : « يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ »

ثم ماذا كانت العاقبة ، والقوة المادية كلها في جانب ، والرسول ﷺ مع صاحبه منها كان مجرداً منها ؟ وكان النصر المؤزر من عند الله بجنود لم يرها الناس ، وكانت الهزيمة للذين كفروا والذل والصغار .

في قوله تعالى : ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ تنبيه لمن يستثقل الجهاد ويقعد عن نصره الله ورسوله ، وتوجيه لمن يخشى قلة العدد فالله نصر رسوله وصاحبه وحولهما جمعٌ غفير من المشركين وهما محصوران ؛ بل وأنزل جنوداً تقيهما سطوة وبأس المشركين .

يقول صاحب المنار : « ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ﴾ سمي أتباع الرسول أصحاباً تواضعاً من رسول الله ﷺ وتربية لهم على احترام جميع أفراد الأمة ومعاملتهم بالعدل والمساواة .
ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - حرمة الاحتيال على الشرع بالفتاوى الباطلة لإحلال الحرام ، وأن هذا الاحتيال ما هو إلا زيادة في الإثم .

٢ - حرمان أهل الكفر والفسق من هداية الله - تعالى - وتوفيقه لما هو حق وخير حالاً ومالاً .

٣ - وجوب الخروج إلى الجهاد إذا دعا الإمام بالدعوة العامة ، وهو ما يعرف بالتعبئة العامة أو النفير العام .

٤ - وجوب نصره رسول الله في دينه وفي أمته وفي سنته .

معاني الكلمات :

- خفافاً وثقالاً : على أية حالة كنتم .
 عرضاً قريباً : مغنماً سهل المأخذ .
 سفراً قاصداً : وسطاً بين القريب والبعيد .
 الشقة : المسافة التي تقطع بمشقة .
 ارتابت : شكت .
 يترددون : يتحIRON .
 فشطهم : فحبسهم وعوقهم عن الخروج معهم .
 خبالاً : شراً وفساداً .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

- ١ - أن نعرف فضيلة الإيمان والتقوى في تنمية روح الجهاد .
- ٢ - أن نحذر إشاعات الأعداء وقت السلم والحرب .
- ٣ - أن نعلم صفات المنافقين كما وردت بالآيات ؛ لنحذرهم ونحذرهم ونؤمن بالصف من شرورهم .

المحتوى التربوي :

في هذه الآيات وبعد أن وضع الله موازينه للنصر والغلبة ، وجعل كلمته هي العليا يدعو الفئة المؤمنة إلى النفرة العامة ، لا يعوقهم معوق ، ولا يقعد بهم طارئ إن كانوا يريدون لأنفسهم الخير في هذه الأرض وفي الدار الآخرة ؛ فطلب منهم أن ينفروا في كل حال ، ويجهادوا بالنفوس والأموال وألا يتلمسوا الحجج والمعاذير ، وألا يخضعوا للعوائق والتعللات .

وأدرك المؤمنون المخلصون هذا الخير ، فنفروا والعوائق في طريقهم ، والأعداء حاضرة لو أرادوا التمسك بالأعداء ، ففتح الله عليهم القلوب والأرضين ، وأعز بهم كلمة الله ، وأعزهم بكلمة الله وحقق على أيديهم ما يُعد خارقة في تاريخ الفتوح .

قرأ أبو طلحة ؓ سورة براءة فأتى على هذه الآية فقال : أرى ربنا استغفرنا - شيوْحًا وشبابًا ، جهزوني يا بنى فقال بنوه : يرحمك الله قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات ، ومع أبى بكر حتى مات ، ومع عمر حتى مات ، فنحن نغزو عنك ، فأبى فركب البحر فمات ، فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها إلا بعد تسعة أيام فلم يتغير فدفنوه بها .

يقول صاحب الظلال : « ويمثل هذا الجد فى أخذ كلمات الله انطلق الإسلام فى الأرض ، يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، وتمت تلك الحارقة فى تلك الفتوح التحريرية الفريدة .

ثم ينتقل السياق ليتحدث عن الطوائف التى ظهرت عليها أعراض الضعف فى الصف - وبخاصة جماعة المنافقين ، الذين اندسوا فى صفوف المسلمين باسم الإسلام ، بعد أن غلب وظهر ، فرأى هؤلاء أن حب السلامة وحب الكسب يقتضيان أن يحنوا رؤوسهم للإسلام ، وأن يكيدوا له داخل الصفوف بعد أن عز عليهم أن يكيدوا له خارج الصفوف . ويصور القرآن حالهم قائلاً : لو كان الأمر أمر عرض قريب من أعراض هذه الأرض ، وأمر سفر قصير الأمد مأمون العاقبة لاتبعوك ! ولكنها الشقة البعيدة التى تتقاصر دونها المهم الساقطة والعزائم الضعيفة ، ولكنه الجهد الحظر الذى تجزع منه الأرواح الهزيلة والقلوب المنخوبة . ولكنه الأفق العالى الذى تتخاذل دونه النفوس الصغيرة والبنية المهزولة .

ثم صرف الله - تعالى - الخطاب عن المتخلفين ، ووجه إلى رسول الله ﷺ معدداً لما صدر عنهم من الهنات قولاً وفعلاً ، مبيناً لدناءة همهم فى هذا الخطب ، قال - تعالى - لنبيه « وَسَيَخْلِفُونَ بِاللهِ لَوْ أَسْتَفْتَيْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ » ؛ وهو الكذب المصاحب للضعف أبداً ، وما يكذب إلا الضعفاء ، وبهذا الحلف وبهذا الكذب ، الذى يخيل إليهم أنه سبيل النجاة عند الناس ، والله يعلم الحق ، ويكشفه للناس ، فيهلك الكاذب فى الدنيا بكذبه ، ويهلك فى الآخرة يوم لا يجدى النكران .

ثم يتلطف الله - عز وجل - برسوله ﷺ ، فهو يجعل له بالعفو قبل العتاب ، فلقد تدارى المتخلفون خلف إذن الرسول ﷺ لهم بالقعود حين قدموا له المعاذير وقبل أن ينكشف صدقهم من كذبهم فى هذه المعاذير ، وكانوا سيتخلفون عن الركب حتى ولو لم يأذن لهم ، فعندئذ تنكشف حقيقتهم ، ويسقط عنهم ثوب النفاق ، ويظهرون للناس على طبيعتهم ، ولا يتوارون خلف إذن الرسول .

وإذا لم يكن ذلك فإن القرآن يتولى كشفهم ، ويقرر القواعد التى يمتاز بها المؤمنون والمنافقون . فالذين يؤمنون بالله ، ويعتقدون بيوم الجزاء ، لا ينتظرون أن يؤذن لهم فى أداء فريضة الجهاد ، ولا يتكئون فى تلبية داعى النفرة فى سبيل الله بالأموال والأرواح ، بل يسارعون إليها خفافاً وثقالاً كما أمرهم الله ، طاعة لأمره ، و يقيناً بلاقائه ، وثقة . بجزائه ، وابتغاء لرضاء ، وإنهم

ليطوعون تطوعاً فلا يحتاجون إلى من يستحثهم - فضلاً عن الإذن لهم . إنها يستأذن أولئك الذين خلت قلوبهم من اليقين فهم يتلکؤون ويتلمسون المعاذير ، لعل عائقاً من العوائق يحول بينهم وبين النهوض بتكاليف العقيدة التي يتظاهرون بها ، وهم يرتابون فيها ويرددون .

ولقد كان أولئك المتخلفون ذوى قدرة على الخروج ، لديهم وسائله ، وعندهم عدته ، وقد كان فيهم عبد الله بن أبى ابن سلول ، وكان فيهم الجد بن قيس وكانوا أشرافاً فى قومهم أثرياء ﴿ وَلَٰكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ ﴾ لما يعلمه من طبيعتهم ونفاقهم ، ونواياهم المنطوية على السوء للمسلمين كما سيجىء .

﴿ فَتَّبَطَّهٖمْ ﴾ ولم يبعث فيهم المهمة للخروج ، وتخلفوا مع العجائز والنساء والأطفال الذين لا يستطيعون الغزو ، ولا ينبعثون للجهاد وهذا مكانهم اللائق بالهمم الساقطة والقلوب المرتابة والنفوس الخاوية ؛ وكان ذلك خيراً للدعوة وخيراً للمسلمين ؛ لأن القلوب الخائرة تبعث الخور والضعف فى الصفوف ، والنفوس الخائنة خطر على الجيوش ؛ ولو خرج أولئك المنافقون ما زادوا المسلمين قوة بخروجهم بل ل زادوهم اضطراباً وفوضى ؛ ولأسرعوا بينهم بالوقعة والفتنة والتفرقة والتخذيل ، وفى المسلمين من يسمع لهم فى ذلك الحين . ولكن الله الذى يرعى دعوته ويكلاً رجالها المخلصين ، كفى المؤمنين الفتنة ، فترك المنافقين المتخاذلين قاعدين .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - مشروعية الحرب الاجتماعية التى تحشد لها جميع القوى والقدرات والإمكانات البشرية والمادية عندما تستلزم الضرورة ذلك ، كما حدث فى غزوة «تبوك» .

٢ - المنافقون فى كل زمان ومكان يريدون المغنم السهل ، ويجدون الفتنة لتفرقة الصف وتمزيق الشمل .

٣ - عدم الاستماع إلى إذاعات الأعداء الكاذبة وما يشيعونه من أمن أو خوف لا فى سلم ولا فى حرب .

٤ - فضيلة الإيمان والتقوى إذ صاحبها لا يمكنه أن يتخلف عن الجهاد بالنفس والمال .

٥ - خطر الشك فى العقيدة وأنه سبب الحيرة والتردد ، وصاحبه لا يقدر على الجهاد لا بالمال ولا بالنفس .

٦ - سوابق الشر تحول بين صاحبها وبين فعل الخير .

٧ - تدبير الله - تعالى - لأولياته خير تدبير ، فلذا وجب الرضا بقضاء الله وقدره والتسليم به .

معاني الكلمات :

قلبوا لك الأمور : دبروا لك الحيل والمكايد .

ولا تفتنى : ولا توقعنى فى الإثم .

قد أخذنا أمرنا من قبل : قد احتطنا لأنفسنا من قبل .

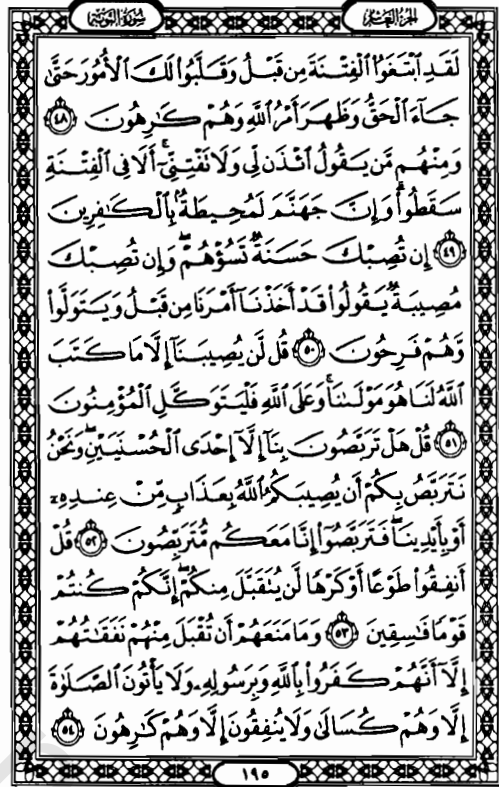
مولانا : ناصرنا ومتولى أمورنا .

هل تربصون بنا : ما تنتظرون بنا .

الحسينين : النصر أو الشهادة .

كرهاً : مكرهين .

كسالى : متثاقلون .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

- ١ - بيان حقيقة المنافقين ووجوب الحذر منهم .
- ٢ - أن نعتقد اعتقاداً جازماً بأنه لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا .
- ٣ - أن نحسن إخراج الصدقات ونقصد بالإتفاق وجه الله - تعالى .
- ٤ - أن نقوم إلى الصلاة متى سمعنا النداء دون تهاون أو تكاسل .

المحتوى التربوى :

يواصل السياق فضح وكشف المنافقين وإن ماضيهم ليشهد بدخل نفوسهم، وسوء طويتهم ، فلقد وقفوا فى وجه الرسول ﷺ وبذلوا ما فى طوقهم ، حتى غلبوا على أمرهم فاستسلموا وفى القلب ما فيه ، لذا وصفهم الله - عز وجل : ﴿ لَقَدْ آتَيْنَا الْفِتْنَةَ ﴾ وكان ذلك عند مقدم الرسول ﷺ إلى المدينة ، قبل أن يظهره الله على أعدائه ، ثم جاء الحق وانتصرت كلمة الله ، فحنوا لها رؤوسهم وهم كارهون ، وظلوا يتربصون الدوائر بالإسلام والمسلمين .

ثم يأخذ السياق في عرض نماذج منهم ومن معاذيرهم المفتراة ؛ ثم يكشف عما تنطوى عليه صدورهم من التربص بالرسول ﷺ والمسلمين ، ومنهم الجذ بن قيس الذي قال للرسول ﷺ : « أو ائذن لي ولا تفتني ؟ فوالله لقد عرف قومي ما رجل أشد عجباً بالنساء مني ، وإنني أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر ألا أصبر عنهن ، فأعرض عنه رسوله الله ﷺ وقال : قد أذنت لك » بمثل هذه المعاذير كان المنافقون يعتذرون والرد عليهم : ﴿ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ .

ويصفهم القرآن بأنهم لا يريدون بالرسول خيراً ولا بالمسلمين ، وإنهم ليسوؤهم أن يجد الرسول والمسلمون خيراً ، وإنهم ليفرحون لما يحل بالمسلمين من مصائب وما ينزل بهم من مشقة ﴿ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ قَرِحُونَ ﴾ بالنجاة وبما أصاب المسلمين من بلاء .

والله قد كتب للمؤمنين النصره ووعدهم به في النهاية ، فمهما يصيبهم من شدة ، ومهما يلاقوا من ابتلاء ، فهو إعداد للنصر الموعود ؛ ليناله المؤمنون عن بينة ، وبعد تمحيص ، وبوسائله التي اقتضتها سنة الله ، نصرًا عزيزًا لا رخيصة ، وعزة تحميها نفوس عزيزة مستعدة لكل ابتلاء ، صابرة على كل تضحية ، والله هو الناصر وهو المعين .

والاعتقاد بقدر الله ، والتوكل الكامل على الله ، لا يفيان اتخاذ العدة بها في الطوق فذلك أمر الله الصريح ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ (الأنفال : ٦٠) ومن يتكل على الله حق الاتكال من لا ينفذ أمر الله ، ومن لا يأخذ بالأسباب ، ومن لا يدرك سنة الله الجارية التي لا تحابي أحداً ، ولا تراعى خاطر إنسان !

على أن المؤمن أمره كله خير . سواء نال النصر أو نال الشهادة . والكافر أمره كله شر سواء أصابه عذاب الله المباشر أو على أيدي المؤمنين .

يقول صاحب الظلال : فماذا يترصد المنافقون بالمؤمنين ؟ إنها الحسنى على كل حال النصر الذى تعلو به كلمة الله ، فهو جزاؤهم في هذه الأرض ، أو الشهادة في سبيل الحق عليا الدرجات عند الله . وماذا يترصد المؤمنون بالمنافيين ؟ إنه عذاب الله يأخذهم كما أخذ من قبلهم من المكذبين ؛ أو يبطش المؤمنون بهم كما وقع من قبل للمشركين ﴿ فَتَرِصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرِصُونَ ﴾ والعاقبة معروفة ، والعاقبة للمتقين .

ولقد كان بعض هؤلاء المعتذرين المتخلفين المتربصين ، قد عرض ماله ، وهو يعتذر عن الجهاد ؛ ذلك ليمسك العصا من الوسط على طريقة المنافيين في كل زمان ومكان ، فرد الله عليهم مناورتهم ، وكلف رسوله أن يعلن أن إنفاقهم غير مقبول عند الله ؛ لأنهم إنما ينفقون عن رياء

وخوف ، لا عن إيمان وثقة ، وسواء بذلوه عن رضا منهم بوصفه ذريعة يخدعون بها المسلمين ، أو عن كره خوفاً من انكشاف أمرهم ، فهو في الحالتين مردود ، لا ثواب له ولا يحسب لهم عند الله .

إنها صورة المنافقين في كل آن ، خوف ومداراة ، وقلب منحرف وضمير مدخول ، ومظاهر خالية من الروح ، وتظاهر بغير ما يكنه الضمير .

ويقول صاحب الظلال في قوله تعالى في وصف المنافقين : ﴿ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى ﴾ : فهم يأتونها مظهراً بلا حقيقة ، ولا يقيمونها إقامة واستقامة ؛ يأتونها كسالى لأن الباعث عليها لا ينبثق من أعماق الضمير ، إنما يدفعون إليها دفعاً ، فيحسون أنهم عليها مسخرون ! وكذلك ينفقون ما ينفقون كارهين مكرهين ، وما كان الله ليقبل هذه الحركات الظاهرة التي لا تحدو إليها العقيدة ، ولا يصاحبها شعور دافع ، فالباعث هو عمدة العمل ، والنية هي مقياسه الصحيح .

ويواصل صاحب الظلال قوله : ولقد كان هؤلاء المنفقون وهم كارهون ذوى مال وذوى أولاد ، وذوى جاه في قومهم وشرف ، ولكن هذا كله ليس بشيء عند الله ، وكذلك يجب ألا يكون شيئاً عند الرسول والمؤمنين . فما هي بنعمة يسبغها الله عليهم ليهنؤوا بها ، إنما هي فتنة يسوقها الله إليهم ويعذبهم بها .
ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - المنافقون أشد خطراً على المسلمين من الكافرين ؛ لأنهم يدبرون المكائد في الخفاء للمسلمين .

٢ - كل ما يصيبنا من خير أو شر ، أو خوف أو رجاء ، أو شدة أو رخاء مُقدر علينا ، مكتوب عند الله - تعالى - والله هو ناصرنا وحافظنا ، فلنفوض الأمر إليه - دائماً ، ولنحسن التوكل عليه .

٣ - الله - تعالى - طيب لا يقبل من الصدقات والنفقات إلا ما كان طيباً ، وما أنفق عن إيمان وإخلاص لله .

٤ - بيان أن المؤمنين بين خيارين في جهادهم : النصر أو الشهادة .

٥ - مشروعية القول الذى يغىظ العدو ويحزنه .

٦ - حرمة التكاثر عن الصلاة وأن ذلك من صفات المنافقين .

معانى الكلمات :

- تزهق أنفسهم : تخرج أرواحهم .
 يفرقون : يخافون منكم فيناقونكم .
 يجمعون : يسرعون في الدخول فيه .
 يلمزك : يعيبك ويطعن عليك .
 في الرقاب : في عتق الأرقاء والأسرى .
 الغارمين : المدينين الذين لا يجدون ما يسدون به ديونهم .
 في سبيل الله : في الغزو والجهاد .
 ابن السبيل : المسافر المنقطع عن ماله .
 هو أذن : يسمع كل ما يقال له ويصدق .
 أذن خير لكم : يسمع الخير ولا يسمع الشر .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

- ١ - بيان صفات المنافقين ، وعدم الاعتراض بهم ولا بأموالهم فلأنها فتنة .
- ٢ - أن نعرف الآداب التي ينبغي أن نتخلق بها مع الله ورسوله وتشريعه .
- ٣ - بيان فرضية الزكاة ومعرفة مصارفها الشرعية .

المحتوى التربوي :

في هذه الآيات يصحح المولى - عز وجل - المفاهيم للفتنة المؤمنة في نظرتهم لهؤلاء المنافقين، فلقد كانوا ذوى مال وذوى أولاد ، وذوى جاه في قومهم وشرف ، ولكن هذا كله ليس بشيء عند الله ، وكذلك يجب ألا يكون شيئاً عند الرسول والمؤمنين . فما هى بنعمة يسبغها الله عليهم ليهنؤوا بها ، إنما هى الفتنة يسوقها الله إليهم ويعذبهم بها .

ويقول صاحب الظلال : « إن الأموال والأولاد قد تكون نعمة يسبغها الله على عبد من عباده ، حين يوفقه إلى الشكر على النعمة ، والإصلاح بها في الأرض ، والتوجه بها إلى الله فإذا هو مطمئن الضمير ، ساكن النفس ، واثق من المصير ، كلما أنفق احتسب وشعر أنه قدم لنفسه ذخراً ، وكلما أصيب في ماله أو بنيه احتسب ، فإذا السكينة النفسية تغمره ، والأمل في الله يسرى عنه .

وقد تكون نعمة يصيب الله بها عبداً من عباده ؛ لأنه يعلم من أمره الفساد والدخل ، فإذا الفلق على الأموال والأولاد يحول حياته جحيمًا ، وإذا الحرص عليها يورقه ويتلف أعصابه ، وإذا هو ينفق المال حين ينفقه فيما يتلفه ويعود عليه بالأذى ، وإذا هو يشقى بأبنائه إذا مرضوا ويشقى بهم إذا صحوا . وكم من الناس يعذبون بأبنائهم لسبب من الأسباب !

وهؤلاء الذين كانوا على عهد الرسول ﷺ وأمثالهم في كل زمان ، يملكون الأموال ويرزقون الأولاد ، يعجب الناس ظاهرها ، وهى لهم عذاب على نحو من الأنحاء . عذاب في الحياة الدنيا وهم - بما علم الله من دخيلتهم - صائرون إلى الهاوية . هاوية الموت على الكفر - والعياذ بالله من هذا المصير .

ويتحدث السياق فاضحاً هؤلاء المنافقين الذين كانوا يدسون أنفسهم في الصف المسلم ، لا عن إيمان واعتقاد ، ولكن عن خوف وتقية ، وعن طمع ورهب ، ثم يحلفون أنهم من المسلمين ، أسلموا اقتناعاً ، وآمنوا اعتقاداً ، فهذه السورة تفضحهم وتكشفهم على حقيقتهم ، فهى الفاضحة التى تكشف رداء المداراة وتمزق ثوب النفاق .

وهم كذلك جناء متطلعون - دائماً - إلى مغباً يحتمون به ، ويأمنون فيه ، فهم لا يحبون النور إنهم مذعورون مطاردون يطاردهم الفزع الداخلى والجبن الروحى .

ومنهم من يلزم النبى ﷺ في توزيع الصدقات ، ويتهم عدالته في التوزيع ؛ وهو المعصوم ذو الخلق العظيم ، ومنهم من يقول : هو أذن يستمع لكل قائل ، ويصدق كل ما يقال ، وهو النبى الفطن البصير المفكر .

ومنهم من يتخفى بالقولة الكافرة الفاجرة ، حتى إذا انكشف أمره استعان بالكذب والحلف ليبرئ نفسه من تبعة ما قال ، ومنهم من يخشى أن ينزل الله على رسوله سورة تفضح نفاقهم وتكشفهم للمسلمين .

وهؤلاء المنافقون الذين يلزمون الرسول ﷺ بالقول ، ويعيبون عدالته في توزيع الصدقات ، ويدعون أنه ﷺ يحبى في قسمتها . هم لا يقولون ذلك غضباً للعدل ، ولا حماسة للحق ، ولا غيرة على الدين ، إنما يقولونه لحساب ذواتهم وأطماعهم ، وحماسة لمنفعتهم وأنانيتهم : ﴿ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا ﴾ ولم يبالوا بالحق والعدل والدين ﴿ وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسَخَطُونَ ﴾ !

وبمناسبة هذه الأخلاق السيئة التى يبوء بها المنافقون يرسم السياق الطريق اللائق بالمؤمنين الصادقين ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾ .

ويقول صاحب الظلال : فهذا هو أدب النفس وأدب اللسان وأدب الإيمان : الرضا بقسمة الله ورسوله ، رضا التسليم والاقتران لا رضا القهر والغلب ، والاكتفاء بالله ، والله كاف عبده . والرجاء في فضل الله ورسوله والرغبة في الله خالصة من كل كسب مادي ومن كل طمع دنيوى . ذلك أدب الإيمان الصحيح الذى ينضج به قلب المؤمن . وإن كانت لا تعرفه قلوب المنافقين ، الذين لم تخالط بشاشة الإيمان أرواحهم ، ولم يشرق في قلوبهم نور اليقين .

وبعد بيان هذا الأدب اللائق في حق الله وحق رسوله - تطوعاً ورضاً وإسلاماً - يقرر أن الأمر - مع ذلك - ليس أمر الرسول ، إنما هو أمر الله وفريضته وقسمته ، وما الرسول فيها إلا منفذ الفريضة المقسومة من رب العالمين ، فهذه الصدقات - أى الزكاة - تؤخذ من الأغنياء فريضة من الله ، وترد على الفقراء فريضة من الله . وهى محصورة في طوائف من الناس يعينهم القرآن ، وليست متروكة لاختيار أحد ، حتى ولا اختيار الرسول .

وبذلك تأخذ الزكاة مكانها في شريعة الله ، ومكانها في النظام الإسلامى ، لا تطوعاً ولا تفضلاً ممن فرضت عليهم . فهى فريضة محتمة ، ولا منحة ولا جزافاً من القاسم الموزع ، فهى فريضة معلومة . إنها إحدى فرائض الإسلام تجمعها الدولة المسلمة بنظام معين لتؤدى بها خدمة اجتماعية محددة ، وهى ليست إحساناً من المعطى ، وليست شحاذة من الآخذ ، كلا فما قام النظام الاجتماعى في الإسلام على التسول ، ولن يقوم !

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - يتصف المنافقون بأخس الصفات ، ولا يجوز الإعجاب بما عندهم من مال أو أولاد ، فإنما هى فتنة واستدراج لهم إلى عذاب الله .

٢ - من صفات المنافقين عدم تحمل المسؤولية ، والظعن في الدين ، وفي شخصية الرسول ﷺ وتصرفات القيادة ، والفرح بالغنائم إن أخذوا منها نصيباً وافراً ، وعدم التسليم لله أو الرغبة في ثوابه .

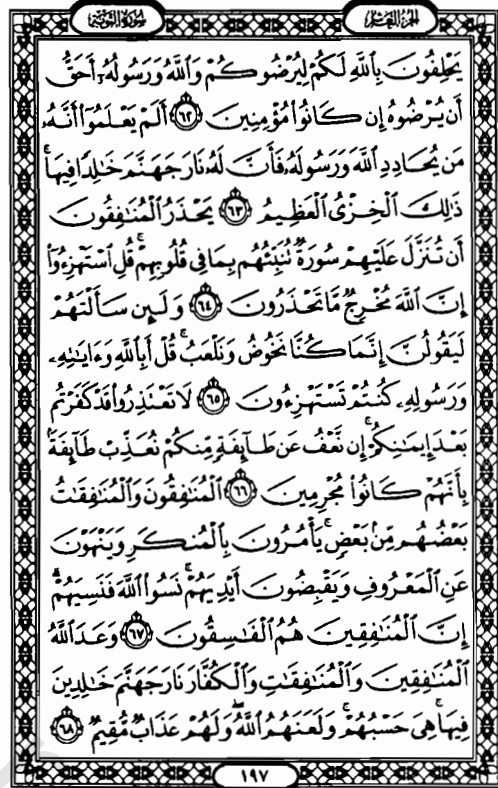
٣ - مصارف الزكاة ثمانية لا يجوز صرفها في غير تلك المصارف ، كما لا يجوز منع صنف من هذه الأصناف إذا وجد .

٤ - ذم الصالحين والظعن فيهم ظاهرة دالة على فساد القلوب والنيات .

٥ - وعيد الله الشديد في الدنيا والآخرة لمن يؤذى الرسول ﷺ أو يسىء إليه بأى شكل من الأشكال ، حال حياته وبعد مماته .

معاني الكلمات :

- من يحادد الله : من يخالفه ويعاديه .
 تنبيههم : تخبرهم .
 تُخْرِجُ : مظهر ومبرز .
 نخوض ونلعب : نتلهى بالحديث .
 يقبضون أيديهم : ييخلون فلا يبسطون
 أيديهم في خير وطاعة .
 فَنَسِيهِمْ : فلم يوقفهم ولم يهدمهم .
 هي حسبيهم : هي كافيتهم عقاباً على
 كفرهم .
 مقيم : دائم .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

- ١ - أن نخالف المنافقين في سلوكهم ونحذرهم ولا نواليهم فإن بعضهم من بعض .
- ٢ - أن نعلم أن الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف من علامات المنافقين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من سيئات المؤمنين .
- ٣ - أن نقصد بكل أقوالنا وأعمالنا وجه الله - عز وجل - ورضاه فالمنافقون يعملون رياء الناس

المحتوى التربوي :

بواصل السياق فضحه للمنافقين فهم يخلفون بالله للمؤمنين ليرضوهم ، على طريقة المنافقين في كل زمان ، الذين يقولون ما يقولون ويفعلون ما يفعلون من وراء الظهور ؛ ثم يجنبون عن المواجهة ، ويضعفون عن المصارحة ، فيتضاءلون ويتخاذلون للناس ليرضوهم ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرِضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ .

فماذا يكون الناس ؟ وماذا تبلغ قوتهم ؟ ولكن الذى لا يؤمن بالله عادة ولا يعنوا له ، يعنو لإنسان مثله ويخشاه ؛ ولقد كان خيرا أن يعنو الله الذى يتساوى أمامه الجميع ، ولا يذل من يخضع له ، إنما يذل من يخضع لعباده ، ولا يصغر من يخشاه ، إنما يصغر من يعرضون عنه فيخشون من دونه من عباد الله .

إنهم يخشون عباد الله فيحلفون لهم ليرضوهم ، ولينفوا ما بلغهم عنهم . فكيف لا يخشون خالق العباد ، وهم يؤذون رسوله ، ويحاربون دينه ، فإنها يحاربون الله ، تعالى الله أن يقصده أحدٌ بحرب ! إنما هو تفضيع ما يرتكبون من إثم ، وتحسيم ما يقارفون من خطيئة ، وتخويف من يؤذون رسول الله ، ويكيدون لدينه في الخفاء .

وإنهم لأجبن من أن يواجهوا الرسول ﷺ والذين معه ، وإنهم ليخشون أن يكشف الله سترهم وأن يطلع رسول الله ﷺ على علة نواياهم ، ويحذر القرآن المنافقين أن ينزل الله قرآنا يكشف خبيثتهم ، ويتحدث عما في قلوبهم ، فيكشف للناس ما يخبئونه .

وقد وردت عدة روايات عن حوادث معينة في سبب نزول هذه الآيات منها : ما أخرجه ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال : « بينا رسول الله ﷺ في غزوته إلى تبوك ، وبين يديه أناس من المنافقين فقالوا : أيرجو هذا الرجل أن يفتح له قصور الشام وحصونها ؟ هيئات هيئات . فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك . فقال النبي ﷺ : « واحسبوا على هؤلاء الركب » فاتأهم فقال : قلت كذا قلت كذا . قالوا : يأنى الله إنما كنا نخوض ونلعب ، فأنزل الله فيهم ما تسمعون .

يقول صاحب الظلال : « إنما كنا نخوض ونلعب ، كأن هذه المسائل الكبرى التى يتصدون لها ، وهى ذات صلة وثيقة بأصل العقيدة كأن هذه المسائل مما يخاض فيه ويلعب : ﴿ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾ .

لذلك ، لعظم الجريمة ، يجبههم بأنهم قالوا كلمة الكفر ، وكفروا بعد إيمانهم الذى أظهره ، وينذرهم بالعذاب ، الذى إن تخلف عن بعضهم لمسارعتة إلى التوبة وإلى الإيمان الصحيح ، فإنه لن يُصرف عن بعضهم الذى ظل على نفاقه واستهزائه بآيات الله ورسوله ، وبعقيدته ودينه .

وعندما يصل السياق إلى هذا الحد من استعراض تلك النماذج من أقوال المنافقين وأعمالهم وتصوراتهم ، يعمد إلى تقرير حقيقة المنافقين بصفة عامة ، وعرض الصفات الرئيسية التى تميزهم عن المؤمنين الصادقين وتحديد العذاب الذى ينتظرهم أجمعين .

فهم من طينة وطبيعة واحدة وكل أفعالهم فى كل زمان ومكان تنبع من معين واحد . سوء الطوية ولؤم السرية ، والغمز والدس ، والضعف عن المواجهة ، والجبن عن المصارحة . تلك سماتهم الأصلية ، أما سلوكهم فهو الأمر بالنكر والنهى عن المعروف والبخل بالمال إلا أن يبذلوه

رثاء الناس ، إنهم ﴿ نَسُوا اللَّهَ ﴾ فلا يحسبون إلا حساب الناس وحساب المصلحة ، ولا يخشون إلا الأقوياء من الناس يذلون لهم ويدارونهم ﴿ فَنَسِيَهُمُ ﴾ الله فلا وزن ولا اعتبار لهم ، وإنهم كذلك في الدنيا بين الناس ، وإنهم كذلك في الآخرة عند الله ، ما يحسب الناس حساباً إلا للرجال الأقوياء الصرحاء ، الذين يجهرون بأرائهم ، ويقفون خلف عقائدهم ؛ ويواجهون الدنيا بأفكارهم ، ويحاربون أو يسالمون في وضع النهار ، أولئك ينسون الناس ليذكروا إله الناس ، فلا يخشون في الحق لومة لائم ، وأولئك يذكروهم الله فيذكروهم الناس ويحسبون حسابهم .

وهم بوصفهم هذا فاسقون خارجون عن الإيمان ، منحرفون عن الطريق ، وقد وعدهم الله مصيراً كمصير الكفار : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ ﴾ وفيها كفايتهم وهي كفاء إجرامهم وهم كذلك مطرودون من رحمة الله ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ .

قال القاسمي : قال الشهاب : ﴿ نَسُوا اللَّهَ ﴾ أنهم لا يذكرونه ولا يطيعونه ؛ لأن الذكر له مستلزم لإطاعته ، فجعل النسيان مجازاً عن الترك ، وهو كناية عن ترك الطاعة ، ونسيان الله منع لطفه وفضله عنهم . وقال التحرير : جعل النسيان مجازاً لاستحالة حقيقته عليه - تعالى ، وامتناع المؤاخذه على نسيان البشر .

ويقول صاحب الأساس بمناسبة قوله - تعالى : ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾ : أى كأنهم نفس واحدة ، وفيه نفى أن يكونوا من المؤمنين ، وتكذيب لهم في ادعائهم أنهم من المسلمين ، فإذا رأيت إنساناً مستور الحال يوالى منافقاً مكشوف النفاق فاعلم أنه مظنة النفاق . ما ترشدنا إليه الآيات تريباً :

١ - المؤمن يعمل - دائماً - لإرضاء الله ورسوله ، والمنافق يحاول إرضاء الناس ، ولو بالحلف الكاذب ؛ لعدم إيمانه .

٢ - كفر من استهزأ بالله أو آياته أو رسوله .

٣ - الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف علامة النفاق وظاهرة الكفر ، وانتكاس الفطرة .

٤ - إذا رأيت إنساناً مستور الحال يوالى منافقاً مكشوف النفاق فاعلم أنه مظنة النفاق .

٥ - لا يُقبل اعتذار من كفر بأى وجه وإنها التوبة أو السيف كُفراً .

معاني الكلمات :

فاستمتعوا بخلقهم : فتمتعوا بنصيبيهم من ملاذ الدنيا .

خضتم : دخلتم في الباطل .

حبطت أعمالهم : بطلت وزهبت أجورها
المؤتفكات : المنقلبات (قرى لوط) .

أولياء : أصدقاء ونصراء .

بالمعروف : بكل ما استحسنة الشرع وأمر به .

المنكر : كل ما استقبحه الشرع ونهى عنه .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

- ١ - أن نعتبر بمن سبقنا من الأمم التي كذبت رسلهم فحل بهم العذاب .
- ٢ - أن نتعاون على البر والتقوى وكل ما يرضى المولى - عز وجل .
- ٣ - أن نؤدى حقوق الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين من النصيحة والتعاون على البر والنصرة .

المحتوى التربوى :

تحدث الآيات عن أن هذه الطبيعة الفاسقة المنحرفة الضالة للمنافقين ، ليست جديدة ، ففى تاريخ البشرية لها نظائر وأمثال ، ولقد حوى تاريخ البشرية من قبل هؤلاء نماذج كثيرة من هذا الطراز ، ولقد لاقى السابقون مصائر تليق بفسوقهم عن الفطرة المستقيمة والطريق القويمة ، بعدما استمتعوا بنصيبيهم المقدر لهم فى هذه الأرض . وكانوا أشد قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فلم يغن عنهم من ذلك كله شىء .

والقرآن يذكر القوم بما كان من أسلافهم ، ويصرهم بأنهم يسلكون طريقهم ، ويحذرهم أن يلاقوا مصيرهم لعلهم يهتدون . ويتحدث صاحب الظلال عن هذه الفتنة فيقول : « إنها الفتنة بالقوة ، والفتنة بالأموال والأولاد ، فأما الذين اتصلت قلوبهم بالقوة الكبرى فهم لا يفتنون

بالقوة العارضة التي تحول لهم في الأرض . لأنهم يخشون من هو أقوى ، فينفقون قوتهم في طاعته وإعلاء كلمته . وهم لا يفتنون بالأموال والأولاد ؛ لأنهم يذكرون من أنعم عليهم بالأموال والأولاد ، فيحرصون على شكر نعمته ، وتوجيه أموالهم وأولادهم إلى طاعته . وأما الذين انحرفت قلوبهم عن مصدر القوة والنعمة فهم يبطرون ويفجرون في الأرض، ويتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام .

وكذلك بطلت أعمالهم بطلاناً أساسياً ؛ لأنها كالنبته بلا جذور ، لا تستقر ولا تنمو ولا تزدهر ، ولذا فهم خسروا كل شيء على وجه الاجمال بلا تحديد ولا تفصيل ، ويتعجب القرآن من هؤلاء الذين يستمتعون غير شاعرين، ويسرون في طريق الهلكى ولا يتعظون .. هؤلاء ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ ممن ساروا في نفس الطريق ؟ ﴿ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ وقد غمرهم الطوفان وطواهم اليم في تيار الفناء المرهوب ﴿ وَعَادٍ ﴾ وقد أهلكوا بريح صرصر عاتية ، ﴿ وَثَمُودَ ﴾ وقد أخذتهم الصيحة ﴿ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ وقد أهلك طاغيتهم المتجبر وأنجى إبراهيم ، ﴿ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ ﴾ وقد أصابتهم الرجفة وخنقتهم الظلة ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ ﴾ قرى قوم لوط وقد قطع الله دابريهم إلا الأقلين .. ألم يأتهم نبأ هؤلاء الذين ﴿ أَنتَهُمُ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ فكذبوا بها ، فأخذهم الله بذنوبهم .

يقول صاحب الظلال : « إن النفس المنحرفة تبطرها القوة فلا تذكر ، وتعميها النعمة فلا تنظر ، وما تنفع عظات الماضي ولا عبره إلا من تفتح بصائرهم لإدراك سنة الله التي لا تتخلف ، ولا تتوقف ، ولا تحايب أحداً من الناس ، وإن كثيراً ممن يبتليهم الله بالقوة وبالنعمة لتغشى أبصارهم وبصائرهم غشاوة ، فلا يبصرون مصارع الأقوياء قبلهم ، ولا يستشعرون مصير البغاة الطغاة من الغابرين . عندئذ تحق عليهم كلمة الله ، وعندئذ تجرى فيهم سنة الله ، وعندئذ يأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر .

وهم في نعمائهم يتقبلون ، وبقوتهم يتخيلون ، والله من ورائهم محيط . إنها الغفلة والعمى والجهالة نراها تصاحب القوة والنعمة والرخاء ، نراها في كل زمان وفي كل مكان إلا من رحم الله من عباده الصالحين .

وفي مقابل المنافقين والكفار ، يقف المؤمنون الصادقون . طبيعة غير الطبيعة ، وسلوكاً غير السلوك ومصيراً غير المصير فالمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء لكن المنافقين والمنافقات بعضهم من بعض فالولاية تحتاج إلى شجاعة وإلى نجدة وإلى تعاون وإلى تكاليف . وطبيعة النفاق تأبى هذا كله ولو كان بين المنافقين أنفسهم . إن المنافقين أفراد ضعاف مهزلة ، وليسوا جماعة متماسكة قوية متضامنة ، على ما يبدو بينهم من تشابه في الطبيعة والخلق والسلوك . وإن

طبيعة المؤمن هي طبيعة الأمة المؤمنة . طبيعة الوحدة وطبيعة التكافل والتضامن في تحقيق الخير ودفع الشر . فهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وهم كذلك ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ الصلة التي تربطهم بالله . ﴿ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ الفريضة التي تربط بين الجماعة المسلمة وتحقق الصورة المادية والروحية للولاية والتضامن .

يقول صاحب الظلال : « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من تكاليف الأمة الخيرة ، بكل ما وراء هذه التكاليف من متاعب ، وبكل ما في طريقها من أشواك ، وكل هذا متعب شاق ، ولكنه كذلك ضروري لإقامة المجتمع الصالح وصيانه .

وكذلك من صفات المؤمنين التي وردت في الآيات أنهم « يطيعون الله ورسوله » فلا يكون لهم هوى غير أمر الله وأمر رسوله ، ولا يكون لهم دستور إلا شريعة الله ورسوله ولا يكون لهم منهج إلا دين الله ورسوله ، ولا يكون لهم الخيرة إذا قضى الله ورسوله ، وبذلك يوحّدون نهجهم ويوحّدون هدفهم ويوحّدون طريقتهم ، فلا تتفرّق بهم السبل عن الطريق الواحد المستقيم : ﴿ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾ والرحمة لا تكون في الآخرة وحدها ، إنما تكون في هذه الأرض أولاً ورحمة الله تشمل الفرد الذي ينهض بتكاليف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وتشمل الجماعة المكونة من أمثال هذا الفرد الصالح . رحمة الله في اطمئنان القلب ، وفي الاتصال بالله وفي الرعاية والحماية من الفتن والأحداث ورحمة الله في صلاح الجماعة وتعاونها وتضامنها واطمئنان كل فرد للحياة واطمئنانه لرضاء الله .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - ضرورة الاعتبار بمن سبق من الأمم الذين كذبوا رسلهم فحل بهم العذاب .
٢ - الله - تعالى - لا يظلم الناس شيئاً ، ولكن هم الذين يظلمون أنفسهم بالكفر وارتكاب المعاصي .

٣ - المؤمنون والمؤمنات أخوة في الدين يتناصرون ويتعاونون ، من أهم صفاتهم التي استحقوا بها رحمة الله وجناته ونعيمه ورضوانه .

أ- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ب- أداء الصلاة على الوجه الأكمل .

ج- إعطاء الزكاة إلى مستحقيها ، ابتغاء وجه الله .

د- طاعة الله ورسوله في كل أمر ونهى .

معانى الكلمات :

أغلظ عليهم : شدد عليهم ولا تفرق بهم .

ما نقموا : ما كرهوا .

لنصدقن : لتصدقن .

تولوا : أعرضوا عن طاعة الله .

فأعقبهم : فجعل مصيرهم .

نجواه : ما يتحدثون به سرا طعنا في الدين .

يلمزون : يعيبون .

بجهدهم : طاقتهم ووسعهم .

سخر الله منهم : أهانهم وأذلهم جزاء وفاقا .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - أن نعرف خطر المنافقين على الصف الإسلامي ونحذرهم .

٢ - أن نلتزم بأوامر الشرع في معاملة أهل النفاق .

٣ - أن نتحرى صدق النية وإخلاصها في كل قول وعمل .

المحتوى التربوي :

في هذه الآيات وبعد أن بين الله - عز وجل - صفة المؤمنين الصادقين وصفة المنافقين الذين يدعون الإيثار ، يأمر الله نبيه أن يجاهد الكفار والمنافقين ، ويقرر القرآن الكريم أن هؤلاء قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهما بأمر خبيثهم الله فيه ، وهو من وحى الكفر الذي صاروا إليه . ويعجب من نعمتهم على رسول الله ﷺ وما كان لهم من بعثته إلا الخير والغنى ويرغبهم في التوبة ويخوفهم التهادي في الكفر والنفاق .

وفي الأمر بقتال الكفار والمنافقين يقول صاحب الظلال : هذه الآية لها معناها وقيمتها في ضرورة حماية المحضن الذي تتم فيه الوقاية من النار ، فلا تترك هذه العناصر المفسدة التي تهاجم المعسكر الإسلامي وهم الكفار ، أو تهاجمه كما كان المنافقون يفعلون » .

لقد كان الرسول ﷺ لآين المنافقين كثيراً ، وأغضى عنهم كثيراً ، وصفح عنهم كثيراً فها هو ذا يبلغ الحلم غايته ، وتبلغ السباحة أجلها ، ويأمره ربه أن يبدأ معهم خطة جديدة ويلحقهم بالكافرين في النص ، ويكلفه جهاد هؤلاء وهؤلاء جهاداً عتيفاً غليظاً لا رحمة فيه ولا هوادة .

إن للين مواضعه وللشدة مواضعها . فإذا انتهى أمد اللين فلتكن الشدة ؛ وإذا انقضى عهد المصابرة فليكن الحسم القاطع ، وللحركة مقتضياتها ، وللمنهج مراحلها ، واللين في بعض الأحيان قد يؤذى ، والمطاوله قد تضر .

يقول صاحب الظلال : وقد اختلف في الجهاد والغلظة على المنافقين ؛ أتكون بالسيف كما روى عن علي - كرم الله وجهه - واختاره ابن جرير - رحمه الله - أم تكون في المعاملة والمواجهة وكشف خبيثاتهم للأنظار كما روى عن ابن عباس ؓ والذي وقع أن رسول الله ﷺ لم يقتل المنافقين .

ويكشف السياق القرآني خبيثة نفوسهم ودخيلتهم في مهمهم بخيانة الرسول ﷺ وقته ، ثم يعقب على هذا التعجب من أمرهم بعد كشف خبيثاتهم بالحكم الفاصل - فاتحاً لهم باب التوبة على مصراعيه ، فمن شاء لنفسه الخير فليدلف إلى الباب المفتوح ومن أراد أن يمضي في طريقه الأعوج ، فالعاقبة كذلك معروفة : العذاب الأليم في الدنيا والآخرة ، وانعدام الناصر المعين في هذه الأرض ، ولن شاء أن يختار ، وهو وحده هو المعلوم .

في قوله تعالى : ﴿ مَخْلُوفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا ﴾ توضيح بأن هؤلاء المنافقين كان يحلفون كلما انكشف أمرهم ، وقد ذكر صاحب الظلال ذلك في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ (المنافقون : ٢) يقول : « كانوا يحلفون ليتقوا ما يترتب على افتضاح أمر من أمورهم ، فيجعلون أيمانهم وقاية وجنة يحتمون وراءها ليوصلوا كيدهم ودهسهم وإغواءهم للمخدوعين فيهم » .

ثم يمضي السياق في عرض نماذج من المنافقين وأحوالهم وأقوالهم من قبل الغزوة وفي ثناياها . فمن المنافقين من عاهد الله لئن أنعم الله عليه ورزقه ، لبيذلن الصدقة ، وليصلحن العمل ، ولكن هذا العهد إنما كان في وقت فقره وحسرتة . وفي وقت الرجاء والطمع فلما أن استجاب الله له ورزقه من فضله نسى عهده ، وتنكر لوعده ، وأدركه الشح والبخل فقبض يده ، وتولى معرضاً عن الوفاء بها عاهد فكان هذا النكث بالعهد مع الكذب على الله فيه سبباً في التمكين للنفاق في قلبه ، والموت مع هذا النفاق ، ولقاء الله به .

والنفس البشرية ضعيفة شحيحة ، إلا من عصم الله ؛ ولا تظهر من هذا الشح إلا أن تعمر بالإيمان ، وترتفع على ضرورات الأرض ، وتنطلق من قيود الحرص على النفع القريب ، لأنها تؤمل في رضوان من الله أكبر . والقلب المؤمن يطمئن بالإيمان ، فلا يخشى الفقر بسبب الإنفاق ، لأنه يثق بأن ما عند الناس ينفد وما عند الله باق ، وهذا الاطمئنان يدفع به إلى انفاق المال في

سبيل الله تطوعاً ورضاً وتطهيراً ، وهو آمن مغتبه ، فحتى لو فقد المال وافترق منه ، فإنه له عوض أعظم عند الله .

فأما حين يقفر القلب من الإيمان الصحيح ، فالشح الفطرى يهيج في نفسه كلما دعا إلى نفقة أو صدقة ، والخوف من الفقر يترأى له فيقعد به عن البذل . ثم يبقى سجين شحه وخوفه بلا أمن ولا قرار ، والذي يعاهد الله ثم يخلف العهد ، والذي يكذب على الله فلا يفى بما وعد ، لا يسلم قلبه من النفاق : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اتّمن خان » .

فلا جرم يعقب إخلاف العهد والكذب على الله نفاقاً دائماً في قلوب تلك الطائفة التي تشير إليها الآية : ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ . وجهل هؤلاء المنافقون أن الله مطلع على السرائر ، عالم بما يدور بينهم من أحاديث ، يحسبونها سرّاً بينهم ؛ لأنهم يتناجون بها في خفية عن الناس ؟ وأن الله يعلم الغيب الخافي المستور ، فيعلم حقيقة النوايا في الصدور ، ولقد كان مقتضى علمهم بهذا ، ألا يستخفوا عن الله بنية ، وألا تحدثهم نفوسهم بإخلاف ما عاهدوا الله عليه ، والكذب عليه في إعطاء العهود .

وتعرض الآيات نموذجاً جديداً للنفاق وأهله ، ومن قبل أخبرنا الله عن المنافقين بأنهم (يقبضون أيديهم) ، وبعد ذكر هذا النموذج ذكر الله - عز وجل - صفة أخرى من صفاتهم وهي أنه لا يسلم أحد من عيبتهم ولزهم في جميع الأحوال ، حتى المتصدقون لا يسلمون منهم ، إن جاء أحد منهم بهال جزيل قالوا : هذا مرء ، وإن جاء بشيء يسير قالوا : إن الله لغنى عن صدقة هذا .

فلا يسلم من تجريحهم أحد من الخيرين ، ذلك وهم قاعدون متخلفون منقبضو الأيدي شحيحو الأنفس ومن ثم يجبههم الرد الحاسم ﴿ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ . ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

- ١ - المنافقون خطر شديد على الإسلام والمسلمين في كل أمة وفي كل وقت .
- ٢ - ضرورة الوفاء بالوعد ، والصدق مع الله - تعالى .
- ٣ - الله - تعالى - لا يقبل من الصدقات إلا ما كان عن طيب نفس ، ومن غير رياء أو حب للظهور والتفاخر .
- ٤ - الله - سبحانه وتعالى - يعلم أسرار عباد وأحوالهم ، ولا يخفى عليه شيء مما في صدورهم ، وما يتحدثون به بينهم ، وسيجازى كل إنسان على ما عمل أو قال .
- ٥ - ليست العبرة في قبول الصدقات بكثرتها ولا بقلتها ، وإنما بإخلاص النية لله فيها .

معاني الكلمات :

خلاف رسول الله : بعد خروجه ، أو لأجل مخالفته .

الخالفين : المتخلفين عن الجهاد .

لا تنفروا : لا تخرجوا للجهاد .

لا تقم على قبره : لا تقف على قبره للدفن أو الزيارة .

أولو الطول منهم : أصحاب الغنى .

ذونا : اتركنا .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

- ١ - أن نعرف علامات النفاق ونحذر الوقوع فيها .
- ٢ - أن ندرك قيمة الجهاد في سبيل الله وطبائع المجاهدين .
- ٣ - ألا نفرح بترك الطاعة وفواتها فلإنها شؤم على صاحبها .

المحتوى التربوي :

في هذه الآيات يخبر الله تعالى رسول ﷺ بأن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلاً للاستغفار وأنه لو استغفر لهم رسول الله ﷺ سبعين مرة ، فلن يغفر الله لهم ؛ بسبب كفرهم بالله ورسوله ، ولأن سنة الله أنه لا يهدي القوم الفاسقين .

ويبدو أن الرسول ﷺ كان يستغفر للمخطئين عسى أن يتوب الله عليهم . فأما هؤلاء فقد أخبرنا بأن مصيرهم قد تقرر ، فلا رجعة فيه : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝ ﴾ . أولئك الذين انحرفوا عن الطريق فلم تعد ترجى لهم أوبة ، وفسدت قلوبهم فلم يعد يُرجى لها صلاح .

قال الزمخشري : « فإن قلت : كيف خفى على أفصح الخلق وأخبرهم بأساليب الكلام وتمثيلاته أن الاستغفار لا يجدى ، قلت : لم يخف عليه ولكنه فعل ما فعل لإظهاراً لغاية رحمته ورأفته على من إليه ، وهو كقول إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (إبراهيم) وهذا باعث على رحمة بعضهم بعضاً » .

وتحدث الآيات مرة عن المتخلفين عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ويستمر السياق يصور لنا المنافقين في أحوالهم وأقوالهم ، وفي سياق الأمر بالنفير وموقفهم منه . وبعد هذه الجولات الطويلة ، تأتى الآن صورتان للتخلف عن النفير : صورة التخلف المنافق ، وصورة التخلف الاضطرابي للمؤمنين ، فأما التخلف المنافق فتخلف يرافقه فرح ، وكرهية للجهاد في سبيل الله ، ومحاولة لتبسيط عن النفير ، وأشر وبطر ، ومن ثم فإن هؤلاء لا يستحقون شرف الجهاد ، ولا يستحقون كرامة الصلاة عليهم إذا ماتوا .

هؤلاء الذين أدركتهم ثقله الأرض ، ثقله الحرص على الراحة ، والشح بالنفقة ، وقعد بهم ضعف الهمة وهزال النخوة ، وخواء القلب من الإيمان ، هؤلاء المخلفون الذين فرحوا بالسلامة والراحة ﴿ خَلَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ وتركوا المجاهدين يلاقوا الحر والجهد وحسبوا أن السلامة غاية يحرص عليها الرجال ! ﴿ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ ﴾ وهى قوله المسترخى الناعم الذى لا يصلح لشيء مما يصلح له الرجال .

ويقول صاحب الظلال : « إن هؤلاء لهم نموذج لضعف الهمة ، وطراوة الإرادة ، وكثيرون هم الذين يشفقون من المتاعب ، وينفرون من الجهد ، ويؤثرون الراحة الرخيصة على الكدح الكريم ، ويفضلون السلامة الدليلة على الخطر العزيز ، وهم يتساقطون إعياء خلف الصفوف الجادة الزاحفة العارفة بتكاليف الدعوات . ولكن هذه الصفوف تظل في طريقها المملوء بالعقبات والأشواك ، لأنها تدرك بفطرتها أن كفاح العقبات والأشواك فطرة في الإنسان ، وأنه ألد وأجل من القعود والتخلف والراحة البليدة التى لا تليق بالرجال » .

وهؤلاء الذين آثروا الراحة على الجهد - في ساعة العسرة - وتخلفوا عن الركب في أول مرة ، هؤلاء لا يصلحون لكفاح ، ولا يرجون لجهاد ، ولا يجوز أن يؤخذوا بالسماحة والتغاضى ، ولا أن يُتاح لهم شرف الجهاد الذى تخلوا عنه راضين .

لذا أمر الله - عز وجل - نبيه ﷺ أن يقول لهم : ﴿ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَائِفِينَ ﴾ .

ويقول صاحب الظلال : إن الدعوات في حاجة إلى طبائع صلبة مستقيمة ثابتة مصممة تصمد في الكفاح الطويل الشاق ، والصف الذى يتخلله الضعاف المسترخون لا يصمد؛ لأنهم

يُخَذِّلُونَهُ فِي سَاعَةِ الشَّدَّةِ فَيُشِيعُونَ فِيهِ الْخِذْلَانَ وَالضَّعْفَ وَالْاضْطِرَابَ . فَالَّذِينَ يَضْعَفُونَ وَيَتَخَلَّفُونَ يَجِبُ نَبْذُهُمْ بَعِيدًا عَنِ الصَّفِّ وَقَايَةً لَهُ مِنَ التَّخَلُّخِ وَالْهَزِيمَةِ . وَالتَّسَامُحُ مَعَ الَّذِينَ يَتَخَلَّفُونَ عَنِ الصَّفِّ فِي سَاعَةِ الشَّدَّةِ ، ثُمَّ يَعُودُونَ إِلَيْهِ فِي سَاعَةِ الرِّخَاءِ ، جُنَايَةً عَلَى الصَّفِّ كُلِّهِ ، وَعَلَى الدَّعْوَةِ الَّتِي يَكْفِاحُ فِي سَبِيلِهَا كِفَاحَهُ الْمُرِيرَ .

هَذَا هُوَ الطَّرِيقُ الَّذِي رَسَمَهُ اللَّهُ - تَعَالَى - لِنَبِيِّهِ الْكَرِيمِ ، وَإِنَّهُ لَطَرِيقُ هَذِهِ الدَّعْوَةِ وَرَجَالُهَا أَبَدًا ، فَلْيَعْرِفْ أَصْحَابُهَا فِي كُلِّ زَمَانٍ وَفِي كُلِّ مَكَانٍ ذَلِكَ الطَّرِيقَ ، وَكَمَا أَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ ﷺ بِالْأَلَا يَسْمَحُ لِلْمُتَخَلِّفِينَ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ أَنْ يَعُودُوا فَيَنْتَظِمُوا فِي الصَّفُوفِ ، كَذَلِكَ أَمْرُهُ أَلَّا يَخْلَعَ عَلَيْهِمْ أَىْ ظِلَالٌ مِنْ ظِلَالِ التَّكْرِيمِ .

فَأَمْرُهُ أَلَّا يَصِلَى عَلَى أَحَدٍ مَاتَ أَبَدًا وَأَلَّا يَقُومَ عَلَى قَبْرِهِ ، فَالصَّلَاةُ وَالْقِيَامُ تَكْرِيمٌ ، وَالْجَمَاعَةُ الْمُسْلِمَةُ يَجِبُ أَلَّا تَبْذُلَ هَذَا التَّكْرِيمَ لِمَنْ يَتَخَلَّفُ عَنِ الصَّفِّ فِي سَاعَةِ الْجِهَادِ ؛ لَتَبْقَى لَهُ قِيَمَتُهُ ، وَلَتُظَلَّ قِيَمُ الرِّجَالِ مَنْوُطَةٌ بِمَا يَبْذُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَبِمَا يَصْبِرُونَ عَلَى الْبَذْلِ ، وَيَثْبَتُونَ عَلَى الْجِهَادِ ، وَيَخْلُصُونَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ لِلَّهِ لَا يَتَخَلَّفُونَ بِهَا فِي سَاعَةِ الشَّدَّةِ ، ثُمَّ يَعُودُونَ فِي الصَّفِّ مُكْرَمِينَ !

فَلَا تَكْرِيمَ ظَاهِرٍ يَنَالُهُ الْمُنَافِقُونَ فِي أَعْيُنِ الْجَمَاعَةِ ، وَلَا تَكْرِيمَ بَاطِنٍ فِي عَالَمِ الضَّمِيرِ : ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ . فَلَا يَقَامُ لَهُمْ وَزَنٌ لَأَمْوَالِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ ؛ لِأَنَّ الْإِعْجَابَ بِهَا نَوْعٌ مِنَ التَّكْرِيمِ الشَّعُورِيِّ لَهُمْ ، وَهُمْ لَا يَسْتَحِقُّونَهُ لَا فِي الظَّاهِرِ وَلَا فِي الشَّعُورِ ، إِنَّهَا هِيَ الْإِحْتِقَارُ وَالْإِهْمَالُ لَهُمْ وَلَمَّا يَمْلِكُونَ .

وَتُظْهِرُ طَبِيعَةَ النِّفَاقِ وَالضَّعْفِ وَالِاسْتِخْذَاءِ ، وَخُطَّةَ الْإِلْتَوَاءِ وَالتَّخَلُّفِ وَالرِّضَا بِالْذُّونِ ، فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةُ تَأْمُرُ بِالْجِهَادِ جَاءَ أَوَّلُو الطُّولِ ، الَّذِينَ يَمْلِكُونَ كُلَّ وَسَائِلِ الْجِهَادِ وَالْبَذْلِ ، جَاءُوا وَلَا يَتَقَدَّمُونَ الصَّفُوفَ كَمَا تَقْتَضِيهِمُ الْمَقْدَرَةُ الَّتِي وَهَبَهَا اللَّهُ لَهُمْ ، وَشَكَرَ النِّعْمَةَ الَّتِي أَعْطَاهَا اللَّهُ إِيَّاهُمْ ، وَلَكِنْ لِيَتَخَذَلُوا وَيَعْتَذِرُوا وَيَطْلُبُوا أَنْ يَقْعُدُوا مَعَ النِّسَاءِ لَا يَذُودُونَ عَنِ حَرَمَةٍ ، وَلَا يَدْفَعُونَ عَنْ سَكَنٍ دُونَ أَنْ يَسْتَشْعِرُوا مَا فِي هَذِهِ الْقَعْدَةِ الذَّلِيلَةِ مِنْ صَغَارٍ وَهَوَانٍ .

مَا تَرَشَدْنَا إِلَيْهِ الْآيَاتُ تَرْبُويًّا :

١ - تَحْمِلُ الشَّدَائِدُ فِي الدُّنْيَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَكُونُ سَبَبًا فِي النِّجَاةِ مِنْ شَدَائِدِ الْآخِرَةِ وَأَهْوَالِهَا .

٢ - مِنْ عَلَامَاتِ النِّفَاقِ الْفَرَحُ بِطَاعَةِ غَيْرِ اللَّهِ وَكَرَاهِيَةُ طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ .

٣ - تَعَمُّدُ تَرْكِ الطَّاعَةِ قَدْ يَسَبِّبُ الْحَرَمَانَ مِنْهَا .

٤ - كِرَاهَةُ الصَّلَاةِ عَلَى أَهْلِ الْفُسْقِ دُونَ الْكُفْرِ .

٥ - حَرَمَةُ غَسْلِ الْكَافِرِ وَالْقِيَامِ عَلَى دَفْنِهِ وَالدَّعَاءِ لَهُ .

معاني الكلمات :

الخوالب : النساء المتخلفات عن الجهاد .

طُبِع : خُتِم .

المفلحون : الفائزون .

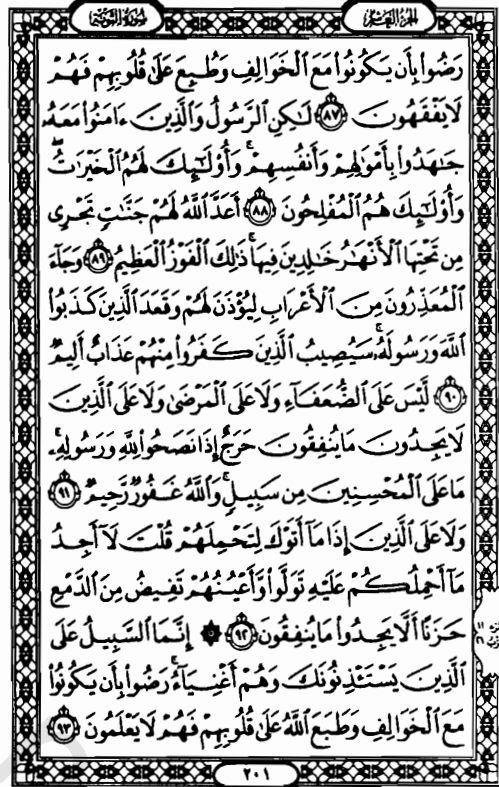
المعذرون : المعتذرون بالأعذار الكاذبة .

الضعفاء : كالشيوخ .

حرج : إثم أو ذنب .

تولوا : انصرفوا .

تفيض من الدمع : تمتلئ بالدمع فتصبه .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

- ١ - بيان فضل الجهاد وأهميته وأجر المجاهدين .
- ٢ - بيان حرمة التخلف عن الجهاد بدون عذر شرعي أو إذن من الإمام .
- ٣ - بيان يسر الإسلام وساحته لأهل الأعذار في عدم المشاركة في الجهاد .

المحتوى التربوي :

يمضي السياق يصف الاستخذاء والذل عند المنافقين الذين لو أدركوا ما في الجهاد من قوة وكرامة وبقاء كريم وما في التخلف من ضعف ومهانة وفناء ذميم ، لما رضوا بأن يكونوا مع الخوالب ، ويتحدث صاحب الظلال - رحمه الله - عن هؤلاء الذين رضوا بأن يكونوا مع الخوالب أنهم يدفعون ضريبة الذل : « وإن للذل ضريبة كما أن للكرامة ضريبة . وإن ضريبة الذل لأفدح في كثير من الأحيان ، وإن بعض النفوس الضعيفة ليخيل إليها أن للكرامة ضريبة باهظة لا تطاق ، فتختار الذل والمهانة - هرباً من هذه التكاليف الثقالة ، فتعيش عيشة تافهة رخيصة مفرقة قلقلة ، تخاف من ظلها ، وتفرق من صداها ، يحسبون كل صيحة عليهم ، ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ، هؤلاء الأذلاء يؤدون ضريبة أفدح من تكاليف الكرامة ، إنهم يؤدون

ضريبة الذل كاملة ، يؤدونها من نفوسهم ، ويؤدونها من أقدارهم ويؤدونها من سمعتهم ، ويؤدونها من اطمئنانهم ، وكثيراً ما يؤدونها من دمائهم وأموالهم وهم لا يشعرون .

ومن هؤلاء .. أولئك الذين ﴿ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ ﴿ وهم طراز آخر غير ذلك الطراز .. ﴿ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ﴾ فنهضوا بتكاليف العقيدة ، وأدوا واجب الإيمان ؛ وعملوا للعزة التى لا تُنال بالقعود ﴿ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ ﴾ ، خيرات الدنيا والآخرة ، فى الدنيا لهم العزة ولهم الكرامة ولهم المغنم ولهم الكلمة العالية ، وفى الآخرة لهم الجزاء الأوفى .

ولهم رضوان الله الكريم ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ الفلاح فى الدنيا بالعيش الكريم ، والفلاح فى الآخرة بالأجر العظيم . ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ أَفْزَرُ الْعَظِيمُ ﴾ .

فأما الأولون فهم ذوو الأعدار الحقيقية ، فلهم عذرهم - إن استأذنوا فى التخلف ، وأما الآخرون فقعدوا بلا عذر . قعدوا كاذبين على الله والرسول ، وهؤلاء ينتظر الذين كفروا منهم عذاب أليم . أما الذين يتوبون ولا يكفرون فمسكوت عنهم ، لعل لهم مصيراً غير هذا المصير .

وأخيراً يحدد التبعة ، فليس الخروج ضربة لازب على من يطيقون ومن لا يطيقون ، فالإسلام دين اليسر ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، والذين عجزوا عن النفرة لا تثريب عليهم ولا مؤاخذه لهم ؛ لأنهم معذورون ، فليس على الضعفاء العاجزين عن القتال لعة فى تكوينهم ، أو لشيخوخة تقعدهم ؛ ولا على المرضى الذين لا يستطيعون الحركة والجهد ؛ ولا على المعدمين الذين لا يجدون ما يتزودون به ، ليس على هؤلاء حرج إذا تخلفوا عن المعركة فى الميدان ، وقلوبهم مخلصه لله ورسوله ، لا يغشون ولا يخدعون ، ويقومون بعد ذلك بما يستطيعونه - دون القتال - من حراسة أو صيانة أو قيام على النساء والذرية فى دار الإسلام ، أو أعمال أخرى تعود بالنفع على المسلمين . ليس عليهم جناح ، وهم يحسنون بقدر ما يستطيعون ، فلا جناح على المحسنين ، إنما الجناح على المسيئين .

إنه الجهاد بمفهومه الشامل وهو نابع من شمولية الإسلام ، فليس الإسلام طقوساً وشعائر فهذا ما يريده أعداء الإسلام وأذئابهم ، من فصله عن حياة الأمة .

ولا جناح كذلك على القادرين على الحرب ، ولكنهم لا يجدون الرواحل التى تحملهم إلى أرض المعركة ، فإذا حرموا المشاركة فيها لهذا السبب ، أملت نفوسهم حتى لتفيض أعينهم بالدمع ؛ لأنهم لم يجدوا ما ينفقون .

قد أشار الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة إلى قوة وعزيمة بعض هؤلاء الضعفاء بقوله : « وإنه يجب أن ننبه أن بعض الضعفاء الذين رفع عنهم الحرج بسبب ضعفهم ، لم يرضوا بأن يكونوا قاعدين ، وإخوانهم يجاهدون ، بل ذهبوا وجاهدوا ، وتقدم أحدهم وهو أعرج ، قال : لا بد أن أكون بعرجى في الجنة ولم يتراخ ، ولم يرض بالقعود ، وذهب بعضهم وهو يهادى بين رجلين ، حتى وصل إلى الصف ليموت مجاهدًا - ﷺ .

ويقول صاحب الظلال : « وإنها لصورة مؤثرة للرغبة الصحيحة في الجهاد ، والألم الصادق للحرمان من نعمة أدائه ، وإنها لصورة واقعة حفظتها الروايات عن جماعة من المسلمين في عهد الرسول ﷺ تختلف الروايات في تعيين أسمائهم ، ولكنها تتفق على الواقعة الصحيحة .

روى العوفي ، عن ابن عباس : « وذلك أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن ينبعثوا غازين معه ، فجاءته عصابة من أصحابه فيهم عبد الله بن مغفل بن مقرن المازني ، فقالوا : يا رسول الله احملنا ، فقال لهم : « والله لا أجد ما أحملكم عليه » فتولوا وهم ييكون ، وعز عليهم أن يجلسوا عن الجهاد ولا يجدون نفقة ولا محملاً ، فلما رأى الله حرصهم على محبته ومحبة رسوله أنزل عذرهم في كتابه ، وقال مجاهد . نزلت في بنى مقرن من مزينة .

وبمثل هذه الروح انتصر الإسلام ، وبمثل هذه الروح عزت كلمته ، فلننظر أين نحن من هؤلاء ، ولننظر أين روحنا من تلك العصابة ، ثم لنطلب النصر والعزة - إن استشعرنا من أنفسنا بعض هذه المشاعر - وإلا فلنسدد ولنقارب والله المستعان .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

- ١ - ذم المتخلفين عن الجهاد مع القدرة عليه مع وجود الغنى والسعة جنباً وإيثاراً للراحة .
- ٢ - فضل الجهاد في سبيل الله بالنفس والمال ، وعظمة ثواب المجاهدين في الدنيا والآخرة .
- ٣ - الجهاد شرف عظيم لا يناله إلا ذوو الهمم العالية ، ويحرم منه أهل النفاق وأهل الأعذار لأتفه الأسباب .

٤ - حرمة الاستئذان للتخلف عن الجهاد مع القدرة عليه .

٥ - حرمة التخلف عن الجهاد بدون إذن من الإمام .

٦ - يسر الإسلام وسماحته في قبول أعذار أصحاب الأعذار وإعفاء المرضى والضعاف وكبار السن ، والعمى والعرج ونحوهم ، ومن لا يقدر على التجهيز للحرب ، أو الخروج لها بسبب فقره كما حدث للبكائين .

معانى الكلمات :

لن نؤمن لكم : لن نصدقكم .

نبأنا الله : أخبرنا .

انقلبتم : رجعتم .

رجس : قذر لحبث باطنهم .

الأعراب : أهل البدو .

أجدر : أحق وأولى .

مغرماً : غرامة وخسراناً .

يتربص بكم الدوائر : ينتظر أن تنزل بكم

المصائب .

صلوات الرسول : دعواته واستغفاره

للمنفقين .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - أن نعرف صفات المنافقين الواردة فى الآيات ، ونحذر الوقوع فيها عند التعامل مع أوامر الله - عز وجل .

٢ - أن نقصد بكل قول وعمل رضا الله - عز وجل - لا رضا الناس .

٣ - أن نعرف فضل الإنفاق فى سبيل الله ، ونتحرى فى إنفاقنا وجه الله - عز وجل - وابتغاء المثوبة .

المحتوى التربوى :

فى الآيات السابقة رفع الله - عز وجل - الحرج عن الضعفاء ، والمرضى ، والفقراء الذين لا يجدون ما ينفقون ، ولا يجد لهم الرسول ﷺ ما يحملهم عليه إلى أرض المعركة ، ووضع السبيل والجناح والحرج على الذين يستأذنون رسول الله ﷺ فى القعود وهم أغنياء قادرين ، لا يقعدهم عذر حقيقى عن الخروج ، والجناح والحرج على هؤلاء القادرين الذين يرضون أن يقعدوا قعدة الخوالم فى الدور .

ويمضى السياق يصف حال هؤلاء الأغنياء القادرين الذين رضوا بأن يكونوا مع الخوالف، ووراء حب الدعة وإيثار السلامة، وسقوط الهمة، وذلة النفس، وانحناء الهامة هروب من المواجهة المصارحة لذا ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ وهذا من إنباء الله لرسوله ﷺ وللمؤمنين بما سيكون من أمر هؤلاء المتخلفين من المنافقين بعد الرجوع من الغزوة. مما يدل على أن هذه الآيات نزلت في أثناء العودة وقبل الوصول إلى المدينة.

يعتذرون إليكم عن تخلفهم وعودهم؛ ذلك لخجلهم من الظهور بفعلتهم هذه عارية، ومن الكشف عن أسبابها الحقيقية، وهى ضعف الإيمان، وإيثار السلامة، والإشفاق من الجهاد؛ وأمر الله - عز وجل - نبيه أن يرد عليهم ﴿قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾! فلا جدوى للقول ولا معول على الكلام، ولكن اعملوا فإن صدق عملكم ما تقولون فذاك، وإلا فلا ثقة بالقول ولا ائتمان ولا اطمئنان.

والله - عز وجل - لا تحفى عليه الأعمال ولا النوايا المخبوءة وراءها، ورسول الله ﷺ سيزن قولكم بعملكم وعلى أساسه يكون التعامل معكم في المجتمع المسلم، ولن ينتهى الأمر - على كل حال - بما يجرى في هذه الأرض في فترة الحياة الدنيا، فوراء ذلك حساب وجزاء، يقوم الله المطلق بالظواهر والسرائر.

ويأتى إنباء آخر من الله - سبحانه - لنبيه ﷺ، عما سيكون من أمر القوم عندما يعود إليهم هو والمؤمنون معه سالين آمنين، وكان المنافقون قد ظنوا أنهم لا يعودون من لقاء الروم! فقد علم الله وأخبر نبيه أنهم سيؤكدون معاذيرهم بالحلف بالله؛ لعل المسلمين يعرضون عن فعلتهم وتخلفهم - عفواً وصفحاً، ولا يحاسبونهم عليها ويجازونهم بها.

ثم يوجهه ربه إلى الإعراض عنهم فعلاً - لكن لا بمعنى العفو والصفح، إنما بمعنى الإهمال والاجتناب؛ معللاً ذلك بأنهم دنس يتجنب ويتوقى.

ثم يمضى السياق بعد بيان جزائهم ينبئ عما سيقع من هؤلاء القاعدين بعد عودة المجاهدين، فهم سيطلبون من المسلمين ابتداء أن يعرضوا عن فعلتهم - صفحاً و عفواً، ثم يتدرجون من هذا إلى طلب رضا المسلمين عنهم ليضمنوا السلامة في المجتمع المسلم بهذا الرضا ولكن الله - سبحانه - يقرر أنهم فسقوا عن دين الله بهذا القعود الناشئ عن النفاق؛ وأن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين، حتى ولو استطاعوا أن يحلفوا ويعتذروا حتى يرضى عنهم المسلمون.

ويتنقل السياق لبيان تصنيف المجتمع الإسلامى في ذلك الوقت - إبان غزوة تبوك - وبدأ بتصنيف الأعراب - وهم البدو - وقد كانت قبائل منهم حول المدينة، وكانت لهم أدوار في الهجوم على دار الإسلام في المدينة قبل إسلامهم، فلما أسلموا كانوا بوجه عام داخلين في الفئتين

اللتين ورد وصفهما في هذه الآيات ، والوصف هنا تقرير قاعدة كلية عن طبيعة الأعراب ، فالشأن في البدو أن يكونوا أشد كفراً ونفاقاً ، وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله .

وروى الإمام أحمد ، عن ابن عباس ، عن رسول الله ﷺ : قال : « من سكن البادية جفا ، ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى السلطان افتتن » . وبعد هذا الوصف الرئيسى العام للأعراب يجيء التصنيف حسباً أحدث الإيمان في النفوس من أثر ، ومن أنشأه كذلك من فروق بين القلوب التى خالطتها بشاشة الإيمان ، والقلوب التى بقيت على ما فيها من كفر ونفاق ، فمن الأعراب من ينفق ماله في الزكاة ، وفي غزوات المسلمين ؛ تظاهراً بالإسلام ، ليستمتع بمزايا الحياة في المجتمع المسلم ومدارة للمسلمين وهم أصحاب السلطان اليوم في الجزيرة ! وهو يعد ما ينفقه غرامة وخسارة ويتربص بهم الدوائر ، ويتمنى ألا يعودوا من غزاة سالمين ! وهنا يعاجلهم السياق بدعاء من الله - سبحانه - عليهم ؛ ﴿ عَلَيْهِمْ ذَايِرَةٌ أَلْسَوْهُ ﴾ ؛ وهناك فريق آخر خالط قلبه بشاشة الإيمان فأمن بالله واليوم الآخر وذلك باعث الإنفاق لديه ، لا الخوف من الناس ، ولا الملقى للغالبيين ، ولا حساب الربح والخسارة في دنيا الناس ، وهذا الفريق المؤمن بالله واليوم الآخر يتغنى بما ينفق أن يكون قربه إلى الله ، ويتطلب صلوات الرسول (أى دعواته) الدالة على رضاه ﷺ ، المقبولة عند الله ، وهو يدعو بها للمؤمنين بالله واليوم الآخر ، المنفقين ابتغاء القربى من الله ورضاه .

لذلك يبادر السياق فيقرر لهم أنها قربة مقبولة عند الله ، ويبرهنهم بحسن العاقبة وعداً من الله حقاً ، فيقبل التوبة والنفقة ، ويغفر ما كان من ذنب ، ويرحم من يبتغون الرحمة .
ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

- ١ - من إعجاز القرآن الكريم إخباره المؤمنين بأحوال المنافقين وأعمالهم وما في نفوسهم .
- ٢ - المنافقون يفضلون رضا الناس على رضا الله - تعالى - ويؤكدون كلامهم الكاذب بالحلف بأغلظ الأيمان .
- ٣ - الأعراب منهم المنافقون ومنهم المؤمنون ، والمنافقون والكافرون منهم أشد وأعظم نفاقاً وكفراً من غيرهم .
- ٤ - فضل النفقة في سبيل الله والإخلاص فيها لله - تعالى .
- ٥ - حرمة الرضا على الفاسق المجاهر بفسقه ، إذ يجب بُغضه فكيف يُرضى عنه ويُحِب ؟
- ٦ - مشروعية الاعتذار على شرط أن يكون المرء صادقاً في اعتذاره .

معانى الكلمات :

- أعد لهم : هيا لهم .
 الأعراب : أهل البادية .
 مردوا على النفاق : مردوا عليه ودربوا به .
 عسى : يُرجى ويُتوقع .
 تزكيتهم بها : تنمى بها حسناتهم .
 صلّ عليهم : ادع لهم واستغفر لهم .
 سكن لهم : طمأنينة ورحمة لهم .
 الغيب : ما احتجب عن الأبصار والعقول .
 الشهادة : الحضور والشهود .
 وآخرون مرجون : وآخرون من المتخلفين
 مؤخرون لا يقطع لهم بتوبة .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

- ١ - أن نعلم فضل السابقين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، ونوقر ذكرهم وسيرتهم في قلوبنا .
- ٢ - ألا نحكم على الناس بالباطن فنحن لا نعلمه ، ولا يعلم أحد من الغيب إلا ما علمه الله - عز وجل .
- ٣ - أن ندرك أهمية الصدقة في قبول التوبة ومغفرة الذنوب .

المحتوى التربوى :

في هذه الآيات وبعد تصنيف الأعراب - على وجه الإجمال - يستطرد السياق في تصنيف المجتمع كله .. حاضره وباده .. إلى أربع طبقات إيمانية : السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، والمنافقين الذين مردوا على النفاق من أهل المدينة ومن الأعراب ، والذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، والذين أرجى الحكم في أمرهم حتى يقضى الله فيهم بقضائه .

والظاهر أن هذا التصنيف قد نزلت به هذه الآيات بعد العودة من تبوك ؛ وبعد اعتذار من اعتذر من المنافقين المتخلفين ومن المؤمنين المتخلفين كذلك ، سواء من اعتذر صادقاً ، ومن ربط نفسه بسارية المسجد حتى يطلق وثاقه رسول الله ﷺ ، ومن لم يعتذر بشئ - راجياً أن يقبل الله توبته بصدقه ، وهم الثلاثة الذين خلفوا ، فلم يحكم في شأنهم بشئ حتى تاب الله عليهم وقبل توبتهم - كما سيجىء - وكان مجموع هؤلاء يمثل صنوف الناس من حول الدعوة ، وفي الجزيرة عقب غزوة تبوك .

وكان الله - سبحانه - يكشف أرض الحركة كلها وما عليها ومن عليها لرسوله ﷺ ومن معه من المؤمنين قبل أن ينطلق إلى الأرض كلها بإعلانه العام بالعبودية لله وحده والدينونة له وحده ، وتحرير الإنسان في الأرض من العبودية للعباد في شتى الصور والأشكال .

والطبقة الأولى بمجموعاتها الثلاث : « السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان ، كانت تؤلف القاعدة الصلبة للمجتمع المسلم في الجزيرة بعد الفتح ، والسابقون من المهاجرين هم الذين هاجروا قبل بدر ، وكذلك السابقون من الأنصار . أما الذين اتبعوهم بإحسان - الذين يعنيهم هذا النص وهو يتحدث عما كان واقعاً إبان غزوة تبوك ، فهم الذين اتبعوا طريقهم ، وآمنوا إيمانهم ، وأبلوا بلاءهم بعد ذلك ، وارتفعوا إلى مستواهم الإيماني وإن بقيت للسابقين سابقتهم بسبقهم في فترة الشدة قبل بدر ، وهى أشد الفترات طبعاً . ويتحدث صاحب الظلال عن هذا التمايز الإيماني في صفوف المجتمع المسلم قائلاً : « نعم إنه كانت في هذا المجتمع ما تزال هناك أقدار متفاوتة أنشأتها الحركة العقدية ذاتها ، فتميزت مجموعات من المؤمنين بأقدارها على قدر بلائها في الحركة وسبقها وثباتها .. تميز السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار . وتميز أهل بدر ، وتميز أصحاب بيعة الرضوان في الحديبية ، ثم تميز - بصفة عامة - الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا ، وجاءت النصوص القرآنية والأحاديث النبوية ، والأوضاع العملية في المجتمع المسلم ، تؤكد هذه الأقدار التى أنشأتها الحركة بالعقيدة ، وتنص عليها ... » .

ذلك مستوى .. وفي مقابلة مستوى « الأعراب » الذين سبق الحديث والكشف عنهم عامة سواء من منافقى المدينة ، أو منافقى الأعراب ، ولكن الحديث هنا عن صنف خاص حذق النفاق ومرن عليه ولج فيه ومرد حتى ليخفى أمره على رسول الله ﷺ مع كل فراسته وتجربته ، والله يؤمن رسوله والمؤمنين من كيدهم ، وينذر هؤلاء المنافقين بأنه - سبحانه - لن يدهمهم ، فسيعذبهم عذاباً مضاعفاً في الدنيا والآخرة .

وبين المستويين المتقابلين ، مستويان بين بين - أولهما : من اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، قيل : نزلت في أبى لبابة وأصحابه ، وهؤلاء حسم أمرهم بأن أطلق وثاقهم

الرسول ﷺ وعذرهم بعد نزول هذه الآيات ، وقبل الله توبتهم ، وأمر النبي ﷺ بأن يأخذ من أموالهم صدقة؛ ويدعوهم لتهداً نفوسهم وتطمئن بتوبة الله عليهم لما علم حسن وصدق توبتهم ، ويوجه الحديث إلى المتخلفين الثائبين بأن محك الصدق في توبتهم هو العمل الظاهر الذى يراه الله ورسوله والمؤمنون . فأما في الآخرة فمردهم إلى عالم الغيب والشهادة الذى يعلم فعل الجوارح وكوامن الصدور . وأن الندم والتوبة ليسا نهاية المطاف ، ولكنه العمل الذى يعقب الندم والتوبة ، فيصدق أو يكذب تلك المشاعر النفسية ويعمقها أو يكتسحها بعد أن تكون !

والفريق الأخير هو الذى لم يثبت في أمره ، وقد وكل أمره إلى ربه : وهم القسم الآخر من المتخلفين من غزوة تبوك - غير المنافقين والمعتذرين والمخطئين الثائبين ، وهذا القسم لم يكن حتى نزول هذه الآيات قد بُت في أمره بشيء .

وكان أمرهم موكولاً إلى الله ، لم يعلموه ولم يعلمه الناس بعد ، وقد روى أن هذه الآية نزلت في الثلاثة الذين خلفوا - أى أجل إعلان توبتهم والقضاء في أمرهم ؛ وهم مرارة بن الربيع ، وكعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، الذين قعدوا عن غزوة تبوك - كسلًا وميلًا إلى الدعة واسترواحًا للظلال في حر الهاجرة ! ثم كان لهم شأن مع رسول الله ﷺ سيأتى تفصيله في موضعه من السورة .

ولما كان أمرهم مرجأ ، فإننا نحب أن نرجى الحديث فيه حتى يجيء في موضعه - إن شاء الله تعالى .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - فضل المهاجرين مع النبي ﷺ من مكة إلى المدينة - وبخاصة السابقون منهم إلى الإسلام ، وفضل الأنصار من أهل المدينة - وبخاصة السابقون منها إلى الإسلام أيضا ، وفضل كل من اتبعوهم بإحسان .

٢ - نعيم الدنيا لا يمنع نعيم الآخرة ، وكذلك عذاب الدنيا لا يمنع عذاب الآخرة .

٣ - الندم والتوبة ليسا نهاية المطاف ، ولكنه العمل الذى يعقب الندم والتوبة ، فيصدق أو يكذب تلك المشاعر النفسية ويعمقها أو يكتسحها بعد أن تكون .

٤ - علم ما في القلوب إلى الله - تعالى - فلا يعلم أحد من الغيب إلا ما علمه الله - عز وجل .

٥ - الرجاء لأهل التوحيد الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً بأن يغفر الله لهم ويرحمهم .

٦ - الصدقة تكفر الذنوب وتطهر الأرواح من رذيلة الشح والبخل .

معانى الكلمات :

- ضاراً : إيقاع الضرر والإيذاء بغيرهم .
وكفرا : أى الكفر بالله والمباهاة لأهل
الإسلام ؛ لأنهم أرادوا بينائه تقوية أهل
النفاق .
إرصداً : ترقباً وانتظاراً .
على شفا جرف : على حرف بئر لم تبين
بالحجارة .
هار : هائر متصدع أو متهدم .
فانهار به : فسقط البنيان بالبانى .
رية : شكا ونفاقاً .
تقطع قلوبهم : تتقطع وتتفرق أجزاء
بالموت .



الأهداف الإجرائية والسلوكية:

- ١ - أن نعرف فضل الجهاد والاستشهاد في سبيل الله .
- ٢ - أن نشكر الله فضله - تعالى - ومننه على أن وهبنا أرواحنا وأموالنا ثم اشتراها منا .
- ٣ - أن نستشعر طبيعة وحقيقة البيعة مع الله ونلتزم بالوفاء بها .

المحتوى التربوى :

تحدث الآيات في بدايتها عن مسجد الضرار وهى قصة بارزة في غزوة تبوك ، لذلك أفردت المنافقين الذين قاموا بها من بين سائر المنافقين ، وخصص لهم حديثاً مستقلاً بعد انتهاء الاستعراض العام لطوائف الناس في المجتمع المسلم - حينذاك .

ولا مجال لسرد القصة كما وردت في تفسير ابن كثير ، ولكن نقول : إن هذا المسجد - مسجد الضرار - الذى اتخذ على عهد رسول الله ﷺ مكيدة للإسلام والمسلمين ، لا يراد به إلا الإضرار - بالمسلمين ، وإلا الكفر بالله ، وإلا ستر المتأمرين على الجماعة المسلمة ، الكائدين لها في الظلام . هذا المسجد ما يزال يتخذ في صور شتى ثلاثم ارتقاء الوسائل الخبيثة التى يتخذها أعداء هذا الدين ، تتخذ في صورة نشاط ظاهره الإسلام وباطنه لسحق الإسلام وتتخذ في صورة أوضاع

ترفع لافتة الدين عليها ؛ لتترس وراءها وهى ترمى هذا الدين ، يتخذ فى صورة تشكيلات وتنظيمات وكتب وبحوث تتحدث عن الإسلام لتخدر القلقين الذين يرون الإسلام يذبح ويمحق ، فتحذرهم إلى أن الإسلام بخير لا خوف عليه ولا قلق ! وتتخذ فى صور شتى كثيرة .

ويقول صاحب الظلال - معلقاً على عاقبة مسجد الضرار : « لقد انهار الجرف المنهار ببناء الضرار الذى أقيم عليه ، انهار به فى نار جهنم وبش القرار ! ولكن ركام البناء بقى فى قلوب بناته ، بقى فيها « رِبَّةٌ » وشكاً وقلقاً وحيرة ، وسيبقى كذلك لا يدع تلك القلوب تطمئن أو تثبت أو تستقر . إلا أن تتقطع وتسقط هى الأخرى من الصدور .

مما سبق يتبين لنا أن القرآن الكريم كان يعمل فى قيادة المجتمع المسلم ، وفى توجيهه ، وفى توعيته ، وفى إعدادة لمهمته الضخمة من خلال كشفه لطبيعة المجتمع من حول المؤمنين بكل فئاته ، وتصنيفه لطبقاته الإيمانية وكشفه للمنافقين بكل أصنافهم ، وبها كادوه من مكائد ومؤامرات للدعوة ولرجالها .

وينتقل السياق ليرسم بقية الأحكام النهائية فى طبيعة العلاقات بين المجتمع المسلم وغيره ، تبدأ من تحديد العلاقة بين المسلم وربه ، وتحديد طبيعة ، « الإسلام » الذى أعلنه ، ومن بيان تكاليف هذا الدين ، ومنهج الحركة به فى مجالاته الكثيرة .

ويقول صاحب الظلال معلقاً على بداية هذه الأحكام : إن الدخول فى الإسلام صفقة بين متبايعين .. الله - سبحانه - فيها هو المشتري ، والمؤمن فيها هو البائع . فهى بيعة مع الله لا يبقى بعدها للمؤمن شئ فى نفسه ولا فى ماله يحتجزه دون الله - سبحانه - ودون سبيله ؛ لتكون كلمة الله هى العليا ، وليكون الدين كله لله ، فقد باع المؤمن لله فى تلك الصفقة نفسه وماله مقابل ثمن محدد معلوم ، هو الجنة : وهو ثمن لا تعدله السلعة ولكنه فضل الله ومنه .

والذين باعوا هذه البيعة ، وعقدوا هذه الصفقة هم صفوة مختارة ، ذات صفات مميزة .. منها ما يختص بذوات أنفسهم فى تعاملها المباشر مع الله فى الشعور والشعائر ؛ ومنها ما يختص بتكاليف هذه البيعة فى أعناقهم من العمل خارج ذواتهم ، لتحقيق دين الله فى الأرض من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والقيام على حدود الله فى أنفسهم وفى سواهم .

وحقيقة هذه البيعة - أو هذه المبايعة كما سماها الله كرمًا منه وفضلاً وسماحة - أن الله - سبحانه - قد استخلص لنفسه أنفس المؤمنين وأموالهم ، فلم يعد لهم منها شئ ، لم يعد لهم أن يستبقوا منها بقية لا ينفقونها فى سبيله ، لم يعد لهم خيار فى أن يبذلوا أو يمسكوا .. كلا .. إنها صفقة مشتركة ، لشاريها أن يتصرف بها كما يشاء ، وفق ما يفرض ما يحدد ، وليس للبائع فيها من شئ سوى أن يمضى فى الطريق المرسوم ، لا يتلفت ولا يتحير ، ولا يناقش ولا يجادل ، ولا يقول إلا

الطاعة والعمل والاستسلام والثلث : هو الجنة ، والطريق : هو الجهاد والقتل والقتال، والنهاية : هى النصر أو الاستشهاد .

من بايع على هذا . من أمضى عقد الصفقة . من ارتضى الثمن ووفى . فهو المؤمن .

فالمؤمنون هم الذين اشترى الله منهم فباعوا ، ومن رحمة الله أن جعل للصفقة ثمناً ، وإلا فهو واهب الأنفس والأموال ، وهو مالك الأنفس والأموال ، ولكنه كرم هذا الإنسان فجعله مريداً ؛ وكرمه فجعل له أن يعقد العقود ويمضيها - حتى مع الله - وكرمه فقيده بعقوده وعهوده ؛ وجعل وفاء بها مقياس إنسانيته الكريمة ؛ ونقضه لها هو مقياس ارتكاسه إلى عالم البهيمة .. شر البهيمة .. ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿ الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرْوَةٍ هُمْ لَا يُتَّقُونَ ﴾ ﴿ (الأنفال) ﴾ كما جعل مناط الحساب والجزاء هو النقض أو الوفاء .

وإنها لبيعة رهيبة - بلا شك - ولكنها فى عنق كل مؤمن - قادر عليها - لا تسقط عنه إلا بسقوط إيمانه ، والجهاد بيعة معقودة بعنق كل مؤمن على الإطلاق منذ كانت الرسل ومنذ كان دين الله ، إنها السنة الجارية التى لا تستقيم هذه الحياة بدونها ولا تصلح الحياة بتركها : ﴿ وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمُ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾ ﴿ (البقرة: ٢٥١) .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - الجهاد فى سبيل الله فريضة ، والتخلف عنه معصية تستوجب التوبة .

٢ - النفاق مرض اجتماعى ندد به المنهج القرآنى فى سور كثيرة . مثل : النساء - التوبة - المنافقون - الأحزاب .. وغيرها ، وقف القرآن موقفاً صلباً منه .

٣ - أهمية المسجد فى الدعوة إلى الله ، وكيفية الاستفادة منه بما يعود بالخير والنفع على المسلمين فى أمور دينهم ودنياهم ، وتفعيل دوره كما كان فى زمن الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين ومن بعدهم حتى أسقطت الخلافة .

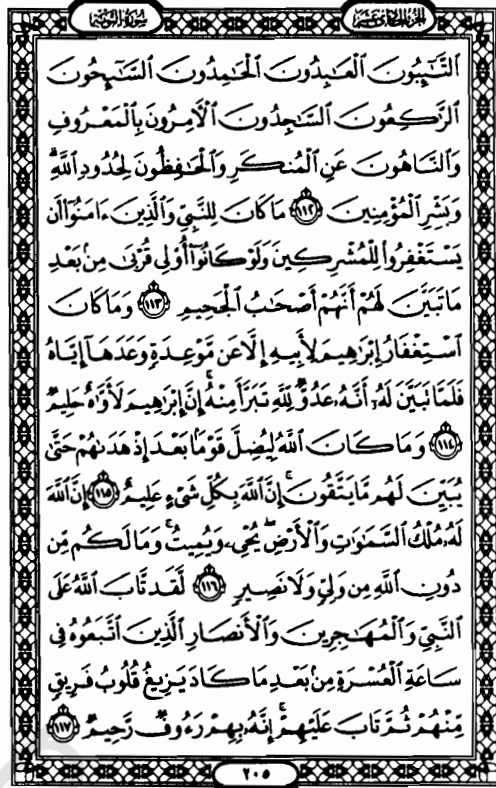
٤ - لا يصلح الاغترار بأقوال أهل النفاق فإنها كذب كلها .

٥ - التحذير من الظلم والإسراف فيه ، فإنه يجرم صاحبه هداية الله فيهلك وهو ظالم فيخسر دنيا وأخرى .

٦ - على المؤمن أن يشعر نفسه أن بدنه وماله لله - تعالى - وأن عليه رعايتهما وحفظهما حتى ترفع راية الجهاد ، فيقدم نفسه وماله إذ هما ودیعة الله - تعالى - عنده .

معانى الكلمات :

- السائحون : الغزاة المجاهدون .
 لحدود الله : لأوامره ونواهيه .
 أولى القربى : ذوى قرابة .
 موعدة وعدّها إياه : أى وعد تقدم من إبراهيم لأبيه بالاستغفار له .
 أواه : كثير التأوه - خوفاً وحسرة .
 ساعة العسرة : وقت الشدة والضيق فى غزوة تبوك .
 يزيع : يميل إلى التخلف عن الجهاد .



الأهداف الإجرائية والسلوكية:

- ١ - أن نسعى جاهدين للاتصاف بصفات المؤمنين التى وردت بالآيات .
- ٢ - أن نحرر الولاء لله بطاعته واللجوء إليه بالتوكل عليه .
- ٣ - أن نفى بالوعود والعهود .
- ٤ - أن نعتقد أن الله لا يضل عباده قبل أن يبين لهم ما يجب عليهم عمله أو اتقاؤه .

المحتوى التربوى :

تستكمل الآيات الحديث عن هذه البيعة التى ختمها الله بوعد معروف مشهور مؤكد مكرور، إنه وعد بالجنة لمن يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وهو بهذا الوعد لا يدع مجالاً للشك فى أصالة عنصر الجهاد فى سبيل الله فى طبيعة هذا المنهج الربانى ، وهذا الوعد ثابت فى التوراة والإنجيل والقرآن ، فهذا إذن هو القول الفصل الذى ليس بعده لقائل مقال !

إن الجهاد فى سبيل الله ليس مجرد اندفاعة إلى القتال : إنما هو قمة تقوم على قاعدة من الإيمان المتمثل فى مشاعر وشعائر وأخلاق وأعمال . والمؤمنون الذين عقد الله معهم البيعة والذين تتمثل

فيهم حقيقة الإيمان هم قوم تتمثل فيهم صفات إيمانية أصيلة فهم التائبون مما أسلفوا ، العائدون إلى الله مستغفرين ، والتوبة شعور بالندم على ما مضى، وتوجه إلى الله فيما بقى ، وكف عن الذنب، وعمل صالح يحقق التوبة بالفعل كما يحققها بالترك ، فهى طهارة وزكاة ، وتوجه وإصلاح .

وهم العابدون المتوجهون إلى الله وحده بالعبادة والعبودية - إقراراً بالربوبية . هذه صفة ثابتة فى نفوسهم تترجمها الشعائر كما يترجمها التوجه إلى الله وحده بكل عمل وبكل قول وبكل طاعة وبكل اتباع . فهى إقرار بالألوهية والربوبية لله فى صورة عملية واقعية ، وكذلك هم الحامدون الذين تنطوى قلوبهم على الاعتراف للمنع بما أنعم ؛ وتلهج ألسنتهم بحمد الله فى السراء والضراء فى السراء للشكر على ظاهر النعمة ، وفى الضراء للشعور بما فى الابتلاء من الرحمة ، وليس الحمد هو الحمد فى السراء وحدها ولكن الحمد فى الضراء حين يدرك القلب المؤمن أن الله الرحيم العادل ما كان ليتبلى المؤمن إلا لخير يعلمه ، مهما خفى على العباد إدراكه .

وهم ﴿ السَّاجِدُونَ ﴾ المتفكرون فى خلق الله وسننه ، فمع التوبة والعبادة والحمد يكون التدبر فى ملكوت الله على هذا النحو الذى ينتهى بالإنباء إلى الله ، وإدراك الحق الذى يقوم عليه الخلق ، لا للاكتفاء بهذا الإدراك وإنفاق العمر فى مجرد التأمل والاعتبار ، ولكن لبناء الحياة وعمرانها بعد ذلك على أساس هذا الإدراك ، وهم كذلك ﴿ الرََّّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ ﴾ الذين يقيمون الصلاة ويقومون بها كأنها صفة ثابتة من صفاتهم ، وكان الركوع والسجود طابع مميز بين الناس لهم . وهم ﴿ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأُحْكِمُوا مَوْثِقَاتِهِمْ وَآتَوْا زَكَاةً وَسُئِلُوا فَآتَوْا بِهَا وَبِذَلِّهِمْ كَرِهَ اللَّهُ مُضَاهَاةَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْأُمُورِ الْأَلْمُوتِ وَالْمَعْرُوفِ وَالْمَعْرُوفِ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ لتقرير ألوهية الله وحده سبحانه وتحقيق قيام المجتمع المسلم وهو المعروف الأكبر ، ومواجهة الطاغوت الذى يعبد الناس لغير الله وهو المنكر الأكبر ، وبعد ذلك كله هم ﴿ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ﴾ وهو القيام على حدود الله لتنفيذها فى النفس وفى الناس ومقاومة من يضيعها أو يعتدى عليها، وهذه هى الجماعة المؤمنة التى عقد الله معها بيعته وبايعها على الجنة ، واشترى منها الأنفس والأموال ، لتمضى مع سنة الله الجارية منذ كان دين الله ورسله ورسالاته . فقتال فى سبيل الله لإعلاء كلمة الله ، وقتل لأعداء الله الذين يحادون الله ، أو استشهاد فى المعركة التى لا تفتر بين الحق والباطل ، وبين الإسلام والجاهلية ، وبين الشريعة والطاغوت ، وبين الهدى والضلال .

وينتقل السياق ليقطع ما بين المؤمنين الذين باعوا تلك البيعة وبين من لم يدخلوا معهم فيها - ولو كانوا أولى قربى - بعدما اختلفت الوجهتان واختلفت العاقبتان فى الدنيا والآخرة ، والظاهر أن بعض المسلمين كانوا يستغفرون لأبائهم المشركين ويطلبون إلى رسول الله ﷺ أن يستغفر لهم، فنزلت الآيات تقرر أن فى هذا الاستغفار بقية من تعلق بقرابات الدم ، فى غير صلة بالله ، لذلك ما كان للنبي ، والذين آمنوا أن يفعلوه ، ولما كان لهم قطعاً وليس من شأنهم أصلاً .

ويقول صاحب الظلال : إن العقيدة هى العروة الكبرى التى تلتقى فيها سائر الأواصر البشرية والعلاقات الإنسانية . فإذا انبتت وشيعة العقيدة انبتت الأواصر الأخرى من جذورها ، فلا لقاء بعد ذلك فى نسب ، ولا لقاء بعد ذلك فى صهر ، ولا لقاء بعد ذلك قوم ولا أرض أو لا إيمان ، فلا صلة إذن يمكن أن تقام بين إنسان وإنسان .

فلا أسوة بإبراهيم فى استغفاره لأبيه ، فإنما كان استغفار إبراهيم لأبيه ، لسبب وعده له أن يستغفر له الله لعله يهديه فلما أن مات أبوه على الشرك ، وتبين إبراهيم أن أباه عدو لله لا رجاء فى هداه ، وتبرأ منه « وقطع صلته به » .

والله لا يحاسب الناس إلا على ما بين لهم أن يتقوه ويحذروه ولا يأتوه ، وليس من شأنه أن يذهب بهدى قوم بعد إذ هداهم ويكلهم إلى الضلال لمجرد الفعل ، ما لم يكن هذا الفعل مما نهاهم عنه قبلاً .. ذلك أن الإنسان قاصر والله هو العليم بكل شئ ومنه البيان والتعليم . ولما كانت تلك طبيعة البيعة ، كان التخلف عن الجهاد للقادرين - أياً كانت الأسباب - أمراً مستكراً عظيماً ، ثم تبين الآيات فيما يلى فضل الله ورحمته بالمؤمنين إذ يتجاوز عما بدا من التردد والتخلف من المؤمنين المخلصين ، ويتوب الله عليهم فيما وقع منهم من أخطاء صغرت أم كبرت ، وتوبة الله على النبى ﷺ تفهم بالرجوع إلى ما كان فى أحداث الغزوة بجملتها ، والظاهر أنها متعلقة بما سبق أن قال الله عنه لنبيه : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ ﴾ مع تنبيهه إلى أن الأولى كان هو التريث حتى يتبين النبى الصادقين فى أعدائهم من الكاذبين المتمحلين !

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - على المؤمن أن يتعاهد نفسه ؛ ليرى هل هو متصف بهذه الصفات التسع أولاً ، فإن رأى نقصاً كمله ، وإن رأى كما لاحمد الله - تعالى - عليه وحفظه وحافظ على .

٢ - لن ينفع الإنسان يوم القيامة قرابة ولا نسب ، ولا مال ولا جاه .. إلخ وإنما ينفعه إيمانه وعمله الصالح .

٣ - لا يجوز الاستغفار - لمن مات على الشرك ؛ لأن الله لا يغفر أن يُشرك به ، فلذا لا يطلب منه شئ أخبر أنه لا يفعله .

٤ - وجوب الوفاء بالوعود والعهود .

٥ - ليس من سنة الله - تعالى - أن يفضل عباده قبل أن يبين لهم ما يجب عليهم عمله أو اتقاؤه .

٦ - ليس للمعبود من دون الله من ولى يتولاه ولا نصير ينصره ، ولذا وجبت ولاية الله بطاعته واللىجوء إليه بالتوكل عليه .

معانى الكلمات :

خُلفوا: تخلفوا عن غزوة «تبوك» بلا عذر .

بما رحبت : مع رحبها وسعتها .

ليتوبوا : ليدأوموا على التوبة .

لا يرغبوا بأنفسهم : لا يترفعوا بها ولا يصرفوها .

نصب : أى تعب .

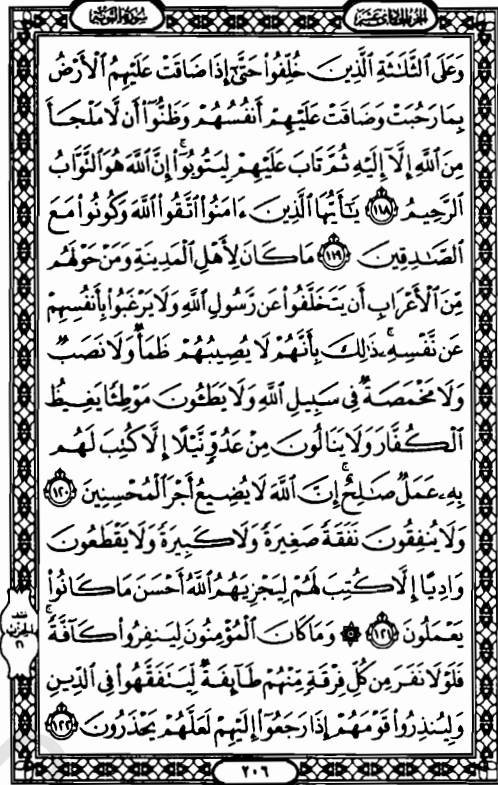
مخمصة : أية مجاعة .

ولا يبطؤون موطئاً : ولا يدوسون مكاناً .

يغيظ الكفار : يغيظهم

نيلاً : شيئاً من قتل أو أسر أو غنيمة .

لينفروا كافة : ليخرجوا إلى الجهاد جميعاً .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

- ١ - أن نلتزم بالصدق - قولاً وفعلًا - وإن بدا فيه الهلكة فعاقبته نجاة .
- ٢ - أن نعرف فضل وثواب المجاهدين في سبيل الله ونقتفى أثرهم .
- ٣ - أن نعلم فضل طلب العلم ، والتفقه في الدين ، والدعوة إلى الله .

المحتوى التربوى :

يتناول السياق قصة الثلاثة الذين تخلفوا غزوة تبوك وهم : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع ، وبالعودة إلى القصة - كما وردت عند كتاب السير - تصف وقائع الغزوة والندب إليهم ، وتختلف المناقشين عنها ، وصدق الثلاثة الذين سبقت الإشارة إليهم من دون الثمانين منافقاً ، وموقف الرسول ﷺ وأمره باعتزالهم ، والنهى عن محادثاتهم ، واعتزال نساءهم أيضاً مدة خمسين ليلة ثم يحىء الفرج - بعد أن ﴿صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنْ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ - يحىء الفرج ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ

الرَّحِيمُ ﴿١﴾ تاب عليهم من هذا الذنب الخاص ؛ ليتوبوا توبة عامة عن كل ما مضى ، ولينيبوا إلى الله إنابة كاملة في كل ما سيأتى .

وفى ظل قصة التوبة على الذين ترددوا والذين تخلفوا ؛ وفى ظل عنصر الصدق البادى فى قصة الثلاثة الذين خلفوا ، يجرى الالتفات للذين آمنوا جميعاً أن يتقوا الله ويكونوا مع الصادقين فى إيمانهم من أهل السابقة ، ويجرى التنديد بتخلف أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب ، مع الوعد بالجزاء السخى للمجاهدين .

يقول صاحب الظلال : « إن أهل المدينة هم الذين تبنا هذه الدعوة وهذه الحركة ، فهم أهلها الأقربون ، وهم بها ولها ، وهم الذين آووا رسول الله ﷺ وبايعوه ، وهم الذين باتوا يمثلون القاعدة الصلبة لهذا الدين فى مجتمع الجزيرة كله ، وكذلك القبائل الضاربة من حول المدينة وقد أسلمت ؛ وباتت تؤلف الحزام الخارجى للقاعدة ، فهؤلاء وهؤلاء ليس لهم أن يتخلفوا عن رسول الله ﷺ فى الحر أو البرد ، فى الشدة أو الرخاء . فى اليسر أو العسر ؛ ليواجه تكاليف هذه الدعوة وأعباءها ، فإنه لا يحق لأهل المدينة - أصحاب الدعوة ، ومن حولهم من الأعراب ، وهم قرييون من شخص رسول الله ﷺ ولا عذر لهم فى ألا يكونوا قد علموا ، أن يشفقوا على أنفسهم مما يحتمله رسول الله ﷺ . ومن أجل هذه الاعتبارات يهتف بهم أن يتقوا الله ويكونوا مع الصادقين ، الذين لم يتخلفوا ، ولم تحدثهم نفوسهم بتخلف ، ولم يتزلزل إيمانهم فى العسرة ولم يتزعزع ، وهم الصفوة المختارة من السابقين والذين اتبعوهم بإحسان .

ثم يمضى السياق بعد هذا الالتفات - مستنكراً مبدأ التخلف عن رسول الله ، وفى التعبير تأنيب خفى ، فما يؤنب أحداً صاحب رسول الله ﷺ بأوجع من أن يقال عنه : إنه يرغب بنفسه عن نفس رسول الله ، وهو معه وهو صاحبه !

وإنها لإشارة تلحق أصحاب هذه الدعوة فى كل جيل ، فما كان المؤمن أن يرغب بنفسه عن مثل ما تعرضت له نفس رسول الله فى سبيل هذه الدعوة ، وهو يزعم أنه صاحب الدعوة ، وأنه يتأسى فيها برسول الله ﷺ ؛ إنه الواجب الذى يوجبه الحياء من رسول الله فضلاً على الأمر الصادر من الله - ومع هذا فالجزاء عليه ما أسخاه !

إنه على الظماً جزاء ، وعلى النصب جزاء ، وعلى الجوع جزاء ، وعلى كل موطن يغيب الكفار جزاء وعلى كل نيل من العدو جزاء . يكتب به للمجاهد عمل صالح ، ويحسب من المحسنين الذين لا يضيع لهم الله أجراً ، وإنه على النفقة الصغيرة أو الكبيرة أجر ، وعلى الخطوات لقطع الوادى أجر أجر - كأحسن ما يعمل المجاهد فى الحياة .

ويقول صاحب الظلال : « ألا والله ، إن الله ليجزل لنا العطاء ، وإنها والله للسماحة فى الأجر والسخاء . وإنه كما ينجل أن يكون ذلك كله على أقل مما احتمله رسول الله ﷺ من الشدة والأواء . فى سبيل هذه الدعوة التى نحن فيها خلفاء ، وعليها بعده أمناء !

ويبدو أن تنزل القرآن فى هذه السورة بالنكير على المتخلفين ؛ والتنديد بالتخلف - وبخاصة من أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب ؛ قد جعل الناس يتزاحمون فى المدينة ليكونوا رهن إشارة رسول الله ﷺ وبخاصة من القبائل المحيطة بالمدينة . مما اقتضى بيان حدود النفي العام ، فقد اتسعت رقعة الأرض الإسلامية حتى كادت الجزيرة كلها تدين للإسلام ، وكثر عدد الرجال المستعدين للجهاد ، وقد بلغ من عددهم - بعد تخلف المتخلفين فى تبوك - نحواً من ثلاثين ألفاً ، الأمر الذى لم يتهياً من قبل فى غزوة من غزوات المسلمين وقد آن أن تتوزع الجهود ، فى الجهاد وفى عمارة الأرض ، وفى التجارة ، وفى غيرها من شؤون الحياة التى تقوم بها أمة ناشئة ؛ وهى تختلف عن مطالب القبيلة الساذجة ، وعن حاجات المجتمع القبلى الأولية . لذا نزلت الآية ﴿ وَمَا كَانِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَآفَّةً ﴾ تبين هذه الحدود فى جلاء ، ولقد وردت روايات متعددة فى تفسير هذه الآية ، وتحديد الفرقة التى تتفقه فى الدين وتنذر قومها إذا رجعت إليهم ، والذى يستقيم عندنا فى تفسير الآية : أن المؤمنين لا ينفرون كافة ، ولكن تنفر من كل فرقة منهم طائفة - على التناوب بين من ينفرون ومن يقون - لتتفقه هذه الطائفة فى الدين بالنفي والخروج والجهاد والحركة بهذه العقيدة ؛ وتنذر الباقيين من قومها إذا رجعت إليهم ، بما رأته وما فقهته من هذا الدين فى أثناء الجهاد والحركة .

ما ترشدنا إليه الآيات تريبوياً :

١ - وجوب مقاطعة كل من يسىء إلى عقيدته أو مجتمعه الصغير والكبير - وخصوصاً فى أوقات المحن والشدائد .

٢ - التزام الصدق ، ولو بدا فيه الهلكة ، وإيثاره على الكذب فى الصدق منجاة .

٣ - للمجاهدين ثواب عظيم وأجر على كل جهد يبذلونه إذا أحسنوا العمل وأخلصوا النية

الله .

٤ - فينبغى أن يكون غرض المعلم الإرشاد والإنذار ، وغرض المتعلم اكتساب الخشية لا التبسط والاستكبار .

٥ - وجوب التقوى والصدق فى النيات والأقوال والأحوال والأعمال .

٦ - حاجة الأمة إلى الجهاد والمجاهدين - كحاجتها إلى العلم والعلماء سواء بسواء .

معانى الكلمات :

- الذين يلونكم : الأقرب فالأقرب منهم .
 غلظة : شدة وحمة وصبراً .
 الذين فى قلوبهم مرض : المنافقون . والمراد بالمرض : النفاق .
 فزادتهم رجساً إلى رجسهم : فزادتهم شكاً ونفاقاً إلى نفاقهم .
 يفتنون : يختبرون .
 من أنفسكم : من جنسكم وعربى مثلكم .
 عزيز عليه ما عنتم : يصعب عليه ما يشق على أمته .
 فإن تولوا : فإن أعرضوا عن الإيمان .
 حسبي الله : يكفينى الله .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

- ١ - بيان أهمية استمرارية الجهاد لنشر الإسلام فى ربوع الدنيا .
- ٢ - أن نعلم آداب التعامل مع آيات الله وأوامره .
- ٣ - أن نفقه حركة هذا الدين وضوابطه المرحلية حسب زمنية التشريع .

المحتوى التربوى :

بعد بيان حدود النفي العام يورد السياق القرآنى للآيات خطة الحركة الجهادية ومداها كذلك وهما الخطة والمدى اللذان سار عليها رسول الله ﷺ وخلفاؤه من بعده بصفة عامة ، فلم تشذ عنها إلا حالات كانت لها مقتضيات واقعة . فأما الخطة الجهادية التى تشير إليها الآية فى قوله - تعالى : ﴿يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا قَبْلُ الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ .

فقد سارت عليها الفتوح الإسلامية ، تواجه من « دار الإسلام » ويجاورونها ، مرحلة فمرحلة . فلما أسلمت الجزيرة العربية - أو كادت - ولم تبق إلا فلول منعزلة لا تؤلف قوة يخشى منها على دار الإسلام بعد فتح مكة - كانت غزوة تبوك على أطراف بلاد الروم ، ثم كان انسياح

الجيوش الإسلامية فى بلاد الروم ، وفى بلاد فارس ، فلم يتركوا وراءهم جيوباً ؛ ووحدت الرقعة الإسلامية ، ووصلت حدودها ، فإذا هى كتلة ضخمة شاسعة الأرجاء ، متماسكة الأطراف ؛ ثم لم يأتها الوهن فيما بعد إلا من تمزقها ، وإقامة الحدود المصطنعة فيما بينها على أساس القوميات !

وهى خطة عمل أعداء هذا الدين على التمكين لها جهد طاقتهم - وما يزالون يعملون وستظل هذه الشعوب التى جعل منها الإسلام « أمة واحدة » فى « دار الإسلام » المتصلة الحدود - وراء فواصل الأجناس واللغات والأنساب والألوان . ستظل ضعيفة مهينة إلا أن تشوب إلى دينها ، وإلى رأيتها الواحدة ؛ وإلا أن تتبع خطأ رسول الله ﷺ وتذكر أسرار القيادة الربانية التى كفلت لها النصر والعز والتمكين .

يقول صاحب الظلال : « إن فقه هذا الدين لا يجوز أن يؤخذ عن القاعدين ، الذين يتعاملون مع الكتب والأوراق الباردة ، إن فقه هذا الدين فقه حياة وحركة وانطلاق وحفظ ما فى متون الكتب . والتعامل مع النصوص فى غير حركة لا يؤهل لفقه هذا الدين ، ولم يكن مؤهلاً له فى يوم من الأيام !

وتشير الآيات إلى أن أول المقصودين بالآية كانوا هم الروم ، وهم أهل كتاب ، ولكن لقد سبق فى السورة تقرير كفرهم الاعتقادي والعملى ، بما فى عقيدتهم من انحراف ، وبما واقعهم من تحكيم شرائع العبيد .

وهذه لفظة لابد من الوقوف عندها لفقه منهج هذا الدين فى الحركة تجاه أهل الكتاب ، المنحرفين عن كتابهم ، المحتكمين إلى شرائع من صنع رجال فيهم ! وهى قاعدة تشمل كل أهل كتاب يتحاكمون - راضين - إلى شرائع من صنع الرجال وفيهم شريعة الله - كتابه ، فى أى زمان وفى أى مكان !

ثم لقد أمر الله المسلمين أن يقاتلوا الذين يلونهم من الكفار وليجدوا فيهم غلظة ، وعقب على هذا الأمر بقوله : ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ ولهذا التعقيب دلالة ، والتقوى هنا .. التقوى التى يحب الله أهلها .. هى التقوى التى تنطلق فى الأرض تقاتل من يلون المسلمين من الكفار ، وتقاتلهم فى « غلظة » أى بلا هوادة ، ولا تميع ولا تراجع ، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .

ولكنه ينبغى أن نعرف - وأن يعرف الناس جميعاً - أنها الغلظة مع الذين من شأنهم أن يحاربوا وحدهم - فى حدود الآداب العامة لهذا الدين - وليست هى الغلظة المطلقة من كل قيد وأدب ! إنه قتال يسبقه إعلان ، وتخيير بين : قبول الإسلام ، أو أداء الجزية ، أو القتال ويسبقه نبذ العهد - إن كان هناك عهد فى حالة الخوف من الخيانة - (والأحكام النهائية تجعل العهد لأهل الذمة الذين

يقبلون مسالة الإسلام وأداء الجزية ؛ولا عهد فى غير هذه الحالة إلا أن يكون بالمسلمين ضعف يجعل الحكم المتعين فى حالتهم هذه هو الحكم المرحلى الذى كان فى حالة تشبه الحالة التى هم فيها » .

وقبل ختام السورة التى تكلمت طويلاً عن المنافقين ، نجيء آيات تصور طريقة المنافقين فى تلقى آيات الله وفى استقبال تكاليف هذه العقيدة التى يتظاهرون بها كاذبين ، وإلى جانبها صورة الذين آمنوا وتلقبهم لهذا القرآن الكريم .

فأما الذين آمنوا فقد أضيفت إلى دلائل الإيمان عندهم دلالة فزادتهم إيماناً قد خفقت قلوبهم بذكر ربهم خفقة فزادتهم إيماناً ، وقد استشعروا عناية ربهم فى إنزال آياته عليهم فزادتهم إيماناً وأما الذين فى قلوبهم مرض ، الذين فى قلوبهم رجس من النفاق ، فزادتهم رجساً إلى رجسهم ، وماتوا وهم كافرون ، وهو نبأ من الله صادق ، وقضاء منه - سبحانه - مُحقق .

وقبل أن يعرض السياق صورة استجابتهم الثانية يسأل مستنكراً حال هؤلاء المنافقين الذين لا يعظمهم الابتلاء ، ولا يردهم الامتحان ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ﴾ وتختتم السورة بآيتين ورد أنهما مكيتان ، وورد أنهما مدنيتان ، ونحن نأخذ بهذا الأخير تتحدث إحداهما عن الصلة بين الرسول وقومه ، وعن حرصه عليهم ورحمته بهم ، الآية الثانية توجيه للرسول ﷺ أن يعتمد على ربه وحده حين يتولى عنه من يتولى ، فهو وليه وناصره وكافيه ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

- ١ - النفاق صفة ذميمة لا ينبغى أن يتصف بها المؤمن ، بل يجب أن يكون ظاهره كباطنه .
- ٢ - المبادرة بالتوبة ، وتذكر نعم الله - دائماً ، وحمده وشكره عليها .
- ٣ - احترام وتوقير مجالس القرآن الكريم ، والانتفاع بما فيها من آداب فيها سعادة الفرد والمجتمع .
- ٤ - الإسلام دين السباحة واليسر ، وقد كان الرسول ﷺ مثالا حياً لهذه الأخلاق بما يتصف به من رافة ورحمة ، وحرص على هداية المؤمنين وسعادتهم فى الدنيا والآخرة .
- ٥ - وجوب الجهاد واستمراريته إلى ألا تبقى فتنة أو شرك أو اضطهاد لمؤمن ، ويكون الدين والحكم كلاهما لله تعالى .
- ٦ - مريض القلب يزداد مرضاً ، وصحيحه يزداد صحة سنة من سنن الله فى العباد .
- ٧ - جواز الفرح بالإيمان والاستبشار بالعمل الصالح .